الإنساني 62

حوار مع ماركو بالدان
كبير جراحي اللجنة الدولية

حروب المدن | ثمن باهظ تدفعه الحواضر العربية

تصدر دوريًا عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر
ICRC
غير مخصصة للبيع
العدد الثاني والستون
خريف/شتاء 2017

كاريكاتور

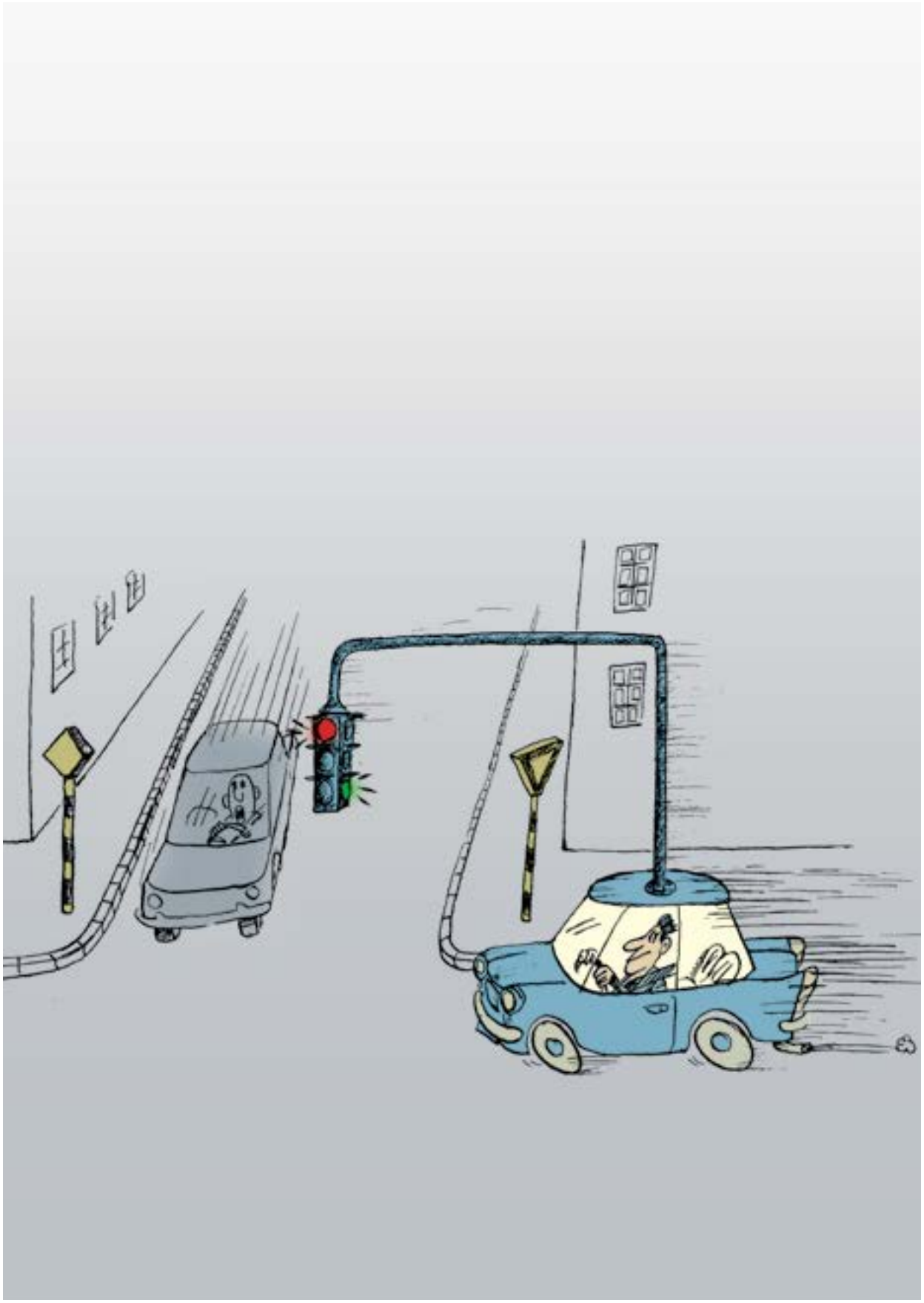

نبيل السُلمي، مصر، [1941 – 1987]

وجوه المدن العربية زمن الحرب

حتمًا كان هناك سابق إنذار. ربما لم يفطن إليه كثيرون. إذ فجأة، اقتحمت الحرب أبواب مدن عربية ساكنة إلى حالها إلى حد كبير، فقتلت سكانًا، وهدمت بيوتًا، وشردت أسرًا، واغتالت أحلامًا. هوت مدنٌ إلى دوامة عنف مسلح دام، فتبدلت أحوالها: الميادين تحولت إلى ثكنات عسكريَّة، والحدائق والمنتزهات إلى خَرَائب، ودور السينما والمسارح إلى ركام. الشوارع العامرة بالمارة في حلب وحمص أصبحت الآن خاوية على عروشها، وهجر الناس المنازل العتيقة في الأحياء القديمة في طرابلس وسرت وتعز، فيما تداعت المعالم التاريخية في مدنٍ صنعاء والموصل. نحو ست سنوات والحرب تدك مدنًا عربية طالما تغنى بجمالها شعراء، وأُلفت عنها كتب وروايات.

ربما لم تفطن المدن العربية، قبل اندلاع ما يسمى بـ «الربيع العربي»، وما رافقه من أعمال عنف حضري ثم نزاعات مستعرة، إلى جسامة التحدي الذي تمثله عملية التحضر المتسارعة. فقد أدت موجات الهجرات المتتالية من الريف والبادية إلى تحول نصف سكان العالم العربي، ومعظمهم في الأصل ريفيون أو بدو، إلى سكان مدن. في بعض المناطق اقتربت نسبة سكان الحضر من 80 في المائة كما في ليبيا، فيما لامست نسبة الـ 60 في المائة في سورية قبل الحرب. وجد الفقراء العرب في الحضر ملاذًا لهم. فالارتحال إلى المدينة يعني عند كثيرين فرصة ترقٍّ اجتماعي، والحصول على عمل يعود على صاحبه ببعض المال، وحياة أفضل عمومًا. ولكن بالنسبة لملايين آخرين فإن العيش في المدينة، يعني اختبار قسوة العنف الحضري، وشبح الفقر المخيم على ملايين يعانون التهميش والاستضعاف. عانت المدن العربية من اكتظاظ السكان، وتردي أحوال البيئة، وتهدم المساكن، وتدهور البنية التحتية، وتدني مستوى الخدمات، وتفاقم المشاكل الاجتماعية كالعنف الحضري، كما قاست مغبة إهمال التخطيط السليم للأحياء والمباني عمومًا.

لهذا، عندما اندلعت شرارة الاضطرابات في العالم العربي في العام 2011، كانت المدن العربية في سورية واليمن وليبيا هي ساحات القتال الرئيسة لهجمات أطراف النزاع كافة. وهو ما أفضى إلى عواقب إنسانية وخيمة، لا نعرف لها مثيلًا في التاريخ المعاصر لعالمنا العربي. فهناك تكلفة إنسانية مهولة لمدنيين سقطوا بفعل القتال الذي يتجدد وسط المناطق الحضرية المأهولة بالسكان، إذ إن الأطراف المتصارعة آثرت التداخل مع السكان المدنيين، وابتعدت عن مواجهة الأعداء في الخلاء. وفي الوقت ذاته، تستخدم الأطراف المتحاربة داخل المدينة أنظمة سلاح صُمِّمت في الأصل لحروب الساحات المفتوحة. وقد كانت اللجنة الدولية شاهدة – في مدن سورية واليمن والعراق وكذلك غزة – على التأثيرات غير الإنسانية الجسيمة لاستخدام الأسلحة المتفجرة في المناطق الحضرية. فهي تعرِّض السكان لمخاطر القتل والإصابة والإعاقة مدى الحياة وكذلك المعاناة النفسية الرهيبة. كما يتجلى أثرها المدمر على البنية التحتية والخدمات الأساسية، علاوة على إجبار الملايين على ترك ديارهم لأجل قد يستمر طويلًا، إذ ليست ثمة نهاية للقتال في المدن العربية تلوح في الأفق.

ونظرًا للأهمية الاستثنائية للحروب التي تدور رحاها في المدن، فقد آثرت مجلة «الإنساني» أن تفرد في هذا العدد ملفًا خاصًّا عن «حروب المدن»، كي نتلمس فيه أبعاد المأساة الإنسانية لهذه النزاعات. نقترب في هذا العدد لنقرأ الفلسفة التي تحكم «الصور الملتقطة» لحروب المدينة. ونذهب إلى بعض المدن لنرى ماذا حل بها. فنقترب من حلب ودمشق وحمص لنعرف كيف يحاول أهل المدينة مقاومة الحرب، وإبداع طرق للحياة. ونشد الرحال إلى اليمن، لنلقي نظرة على الأثر المدمر للحرب على الحواضر اليمنية التاريخية. كما يحمل الملف قراءات لتاريخ المدن التي اختبرت الحروب، كقصة عاصمة القطر على ضفاف النيل الخرطوم، وقصة الرواية التي صاغها الكتاب اللبنانيون عن بيروت زمن الحرب الأهلية، أخيرًا وليس آخِرًا نقرأ عن أغاني المدن التي ارتبطت بالحرب مثلما حدث في مدن قناة السويس المصرية.

«الإنساني»

الإنساني

تصدر دوريًّا عن
اللجنة الدولية للصليب الأحمر

رئيس التحرير زينب غصن

مدير التحرير أحمد زكي عثمان

مستشار التحرير رباب الرفاعي

المراسلات : 33 شارع 106 حدائق المعادي، القاهرة 11431، مصر
هاتف : 25281540/25281541 فاكس : 25281566
البريد الإلكتروني: cai_rcc@icrc.org
الموقع الإلكتروني: www.icrc.org/ar

الآراء الواردة بهذه المطبوعة لا تعبر إلا عن وجهة نظر أصحابها

الإشراف الفني أحمد اللباد

اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة مستقلة محايدة، أنشئت عام 1863. مهمتها إنسانية بحتة، تتمثل في حماية أرواح ضحايا الحرب وكرامتهم وتقديم المساعدة لهم. تقوم اللجنة بتوجيه وتنسيق أنشطة الإغاثة التي تنفذها الحركة الدولية للصليب والهلال الأحمر. وتعمل على ترويج وتدعيم القانون والمبادئ الإنسانية العالمية.

AFB

مشهد من معارك دارت رحاها في حي سيف الدولة بمدينة حلب السورية في نيسان/ أبريل 2014. (رويترز).

REUTERS

62

خريف/شتاء 2017

آراء صادمة لكن كاشفة في استطلاع رأي للجنة الدولية ..... تقرير أحمد زكي عثمان 05

الملف: حروب المدن.. ثمن باهظ تدفعه الحواضر العربية

مدن عربية تتداعى بفعل العنف ..... أ. ز. عثمان 10

لا أحد يبكي على مدن اليمن ..... نشوان محمد السميري 13

هنا حلب أو مدرسة تعلم ثقافة الحياة ..... سناء علي 15

أمنيات الخلاص الصغيرة في الوعر المحاصر ..... س. علي 18

يوميات قذائف تدك مدن سورية ..... ماهر المونس 19

الخرطوم: عاصمة القُطر على ضَفَّاتِ النيل تندب حظها ..... فيصل محمد صالح 22

حضور المدن في صور دمارها ..... سحر مندور 26

المبعدون عن المدينة (ملف مصور) 30

خراب المكان كما تسرده الرواية اللبنانية ..... يوسف بزي 32

الحرب تُلهم البعض سينمائيًّا ..... ماجدة موريس 34

مدن القناة المصرية وتجربة مقاومة الحرب بالغناء ..... فيروز كراوية 37

ماركو بلدان: استخدام الأسلحة الكيميائية أكبر تحد يواجهنا في الشرق الأوسط ..... حاوره: أحمد زكي عثمان 40

الصومال: نسائم أمل تهبُّ على سوق تعاني أوضاعًا مالية صعبة ..... ريتا نياغا 44

ملايين حول بحيرة تشاد يئنون تحت وطأة أزمة إنسانية عنيفة 46

تضحيات بشرية غير مبررة في حروب الشرق الأوسط ..... عمر مكي 48

يوم في حياة اللجنة الدولية للصليب الأحمر ..... عدنان حزام 50

عرض كتاب: مقدمة شاملة في القانون الدولي الإنساني 51

بلا رتوش: منازل برائحة الذكريات ..... زينب غصن 52

شعر: بكائية لأبي فراس ..... محمد إبراهيم أبو سنة 54

من أركان العالم 55

إصدارات 58

تقرير: أحمد زكي عثمان

آراء صادمة لكن كاشفة في استطلاع رأي للجنة الدولية

تأييد قوي لقوانين الحرب لكن لا مبالاة متزايدة إزاء التعذيب

أظهر استطلاع كبير للرأي أجرته اللجنة الدولية حول احترام قوانين الحرب، وفي القلب منها حماية المدنيين، أن نسبة متزايدة من الناس يتقبلون استهداف المدنيين باعتباره تكلفة من تكاليف الحرب التي لا يمكن تفاديها، كما أبدى آخرون قبولًا بتعذيب مقاتلي العدو المأسورين. نتائج الاستطلاع لم تكن كلها سوداوية، إذ رأت أغلبية من الأشخاص المستطلعة آراؤهم أن لقوانين الحرب أهمية فائقة، مشددين على وجوب احترامها.

الصورة: العراق، 2016

ICRC

كولومبيا، 2014

قبل 17 عامًا، وعشية الدخول إلى الألفية الثالثة، انخرطت اللجنة الدولية في مشروع طموح لاستقصاء آراء الناس حول الحرب، وتصوراتهم عن الانتهاكات التي تحدث زمن الحرب. كانت مناسبة الاستطلاع آنذاك هي مرور خمسين عامًا على **اتفاقيات جنيف الأربع** (التي أُبرمت في العام 1949)، وهي اتفاقيات ذات طبيعة ملزمة للكافة. وتهدف، مع بروتوكولاتها الإضافية، للحد من آثار الحروب على الذين لا يشاركون في الأعمال القتالية، كالمدنيين وجرحى المعارك والمأسورين من المقاتلين. وقتها (العام 1999)، خيم شبح الحرب والنزاع المسلح على أكثر من 20 بلدًا، في قارات العالم المختلفة، منها أفغانستان والبوسنة وكمبوديا والصومال وجنوب أفريقيا ولبنان والأراضي الفلسطينية المحتلة. وانتاب اللجنة الدولية القلق العميق جراء غياب الامتثال لقواعد الحرب، إذ كان معدل استهداف المدنيين صادمًا، فأمام كل جندي مقتول في المعارك العسكرية، هناك 10 مدنيين يقضون نحبهم جراء القتال، وهو معدل يُعد نقيض ما حدث في الحرب العالمية الأولى التي شهدت سقوط مدني واحد مقابل تسعة جنود. كان من النتائج الصادمة التي كشف عنها الاستطلاع (أجري 1999) أن 28 في المائة من إجمالي المستجيبين يؤيدون تعذيب مقاتلي العدو المأسورين. وشهدت هذه النسبة ارتفاعًا إلى ثلث المستجيبين من مواطني الولايات المتحدة الأميركية. إلا أن الاستطلاع المعنون «**الناس حول الحرب**»، كشف في المقابل، عن نسبة قليلة للغاية تؤيد استهداف العناصر المقاتلة وغير المقاتلة في الحرب، متى كان استهدافهم يخدم الهدف الأكبر وهو إضعاف العدو. بلغت النسبة ثلاثة في المائة من المستطلعة آراؤهم (في 12 دولة شملها الاستطلاع). وشهدت هذه الفكرة ارتفاعًا وسط الإسرائيليين والصوماليين والنيجيريين (سبعة في المائة)، ووصلت إلى 15 في المائة بين الفلسطينيين.

لا مبالاة متزايدة

للأسف الشديد، ارتفعت نسب المستجيبين غير المكترثين لقواعد الحرب ارتفاعًا مثيرًا للقلق في تقرير مماثل أجرته مؤخرًا اللجنة الدولية، استطلعت فيه آراء أكثر من 17 ألف شخص، ينتمون لـ 16 دولةً حول العالم، وصدرت نتائجه في كانون الأول/ ديسمبر. وجاء الإعداد للتقرير الأخير الذي حمل العنوان نفسه «**الناس حول الحرب**»، في أجواء أسوأ بكثير من تلك التي صدر خلالها استطلاع العام 1999. فقد ارتفعت حدة ونطاق النزاعات المسلحة وأصبحت تمزق مناطق شاسعة من العالم. وخلال السنوات الفاصلة بين إجراء الاستطلاعين (نحو عشرين عامًا)، تحول الشرق الأوسط كلية، فأصبح محط النظر

عن التقرير

يُعد «الناس حول الحرب 2016» أكبر دراسة من نوعها على الإطلاق تجريها اللجنة الدولية حول مجموعة من القضايا المتعلقة بالحرب. فهي تشمل 17 ألف شخص في 16 بلدًا (أفغانستان، أوكرانيا، إسرائيل، جنوب السودان، روسيا، سورية، سويسرا، الصين، العراق، فرنسا، فلسطين، كولومبيا، المملكة المتحدة، نيجيريا). عشرة من هذه البلدان تخوض نزاعًا مسلحًا وقت إجراء الدراسة. وأُجريت الدراسة مع أشخاص تراوحت أعمارهم بين 18 عامًا و 70 عامًا، خلال الفترة ما بين حزيران/ يونيو وأيلول/ سبتمبر 2016، عبر شبكة الإنترنت، والمقابلات الشخصية، والمقابلات عبر الهاتف بمساعدة الكمبيوتر. ولم تتمكن الدراسة من معرفة آراء السوريين داخل سورية، لذا اُستطلعت آراء سوريين يعيشون في لبنان.

ICRC

نازحون عراقيون قرب الموصل (آب/ أغسطس 2014)

بفعل النزاعات المسلحة الهائلة التي تفجرت فيه منذ نحو ست سنوات. الشرق الأوسط حاليًّا ساحة قتال معقدة، تنخرط فيها ربما أكثر من أربع وعشرين دولة، ومئات، إن لم يكن آلاف، من المجموعات المسلحة من غير الدول. وفي هذا السياق، هناك حالة عدم اكتراث متزايدة بالقانون الدولي الإنساني، وهناك أيضًا حالة إنكار للمسؤولية بين الدول والجماعات المنخرطة في النزاعات. وعلى نحو ما أظهره التقرير، أصبح عدد متزايد من الناس يتقبلون مقتل المدنيين باعتباره أمرًا لا يمكن تفاديه من تكلفة الحرب. وفي السياق نفسه، فقد صارت فاعلية وتأثير اتفاقيات جنيف، الرامية إلى حماية المدنيين والمحتجزين والجرحى أثناء النزاعات المسلحة، موضع شك ربما أكثر من أي وقت مضى في التاريخ الحديث، حسبما تقول اللجنة الدولية.

أبرز النتائج الصادمة في استطلاع العام 2016، تمثلت في ارتفاع نسبة المؤيِّدين لإخضاع مقاتلي العدو المأسورين للتعذيب من أجل الحصول على معلومات عسكرية مهمة. وصلت النسبة إلى 36 في المائة من المستجيبين. ويعتقد نحو نصف المستجيبين (48 في المائة) ممن وُجه لهم السؤال هذا العام بأن هذا سلوك خاطئ قانونًا، مقارنة بـ 66٪ في دراسة العام 1999. بينما ذكر 16٪ أنهم لا يعرفون جوابًا. وتحظر المادة الثالثة المشتركة في **اتفاقيات جنيف** تعذيب المقاتلين المعتقلين حظرًا لا لبس فيه، وتعده انتهاكًا خطيرًا لقواعد الحرب.

وقد وجه الاستطلاع سؤالًا للأشخاص الذين هم على دراية بالقانون الدولي الإنساني: «**هل تعتقد أن اتفاقيات جنيف تمنع الحروب من أن تصبح أسوأ، أو أنها لا تحدث أي فرق حقيقي**؟»، وكشفت النتيجة عن أن 38 في المائة من المستجيبين يعتقدون أن **اتفاقيات جنيف** فعالة وأنها تحول دون أن تصبح الحروب أسوأ، وهي نسبة شهدت تراجعًا دراميًّا عن استفتاء 1999، إذا بلغت النسبة آنذاك 52 في المائة. ومن المثير للاهتمام أن 49 في المائة من الأشخاص الذين شملتهم الدراسة في البلدان المتضررة من النزاعات يعتقدون أن اتفاقيات جنيف تحول دون تفاقم الحروب.

النسبة الأخيرة ليست نشازًا، فقد كشفت الدراسة أن الناس الذين يعيشون في بلد يعاني النزاع المسلح، أكثر ميلًا إلى تبني آراء تحمل قدرًا من احترام الإنسانية وقواعد القانون الدولي الإنساني. فردًا على سؤال: «**ماذا عن مهاجمة المقاتلين الأعداء في قرى أو مدن مأهولة بالسكان من أجل إضعاف الجيش، واضعًا بعين الاعتبار أنه سيقتل العديد من المدنيين؟ هل هذا أمر خطأ أم أنه جزء من الحرب**؟»، ذكر 78 في المائة من الناس الذين يعيشون في بلدان متضررة من الحرب أن مهاجمة مقاتلي العدو داخل مناطق مأهولة بالسكان هو أمر خاطئ، خاصة أنه قد يصيب المدنيين بأذى. وتنخفض نسبة الرافضين للهجوم على المناطق المأهولة بالسكان وسط مواطني الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن، الذين أوضح التقرير أنهم يتقبلون بدرجة أكبر سقوط ضحايا من المدنيين ومعاناتهم باعتباره أمرًا لا يمكن تفاديه في الحرب. وحسب الاستطلاع فقد بلغت نسبة الرافضين في دول مجلس الأمن 50 في المائة فقط. وعلى الوتيرة نفسها، يرى 26 في المائة من المستجيبين من دول مجلس الأمن أن حرمان السكان المدنيين من الاحتياجات الأساسية كالطعام أو الدواء أو الماء بهدف إضعاف العدو ما هو إلا «**جزء من الحرب**». وتنخفض هذه النسبة انخفاضًا واضحًا في البلدان المتضررة من الحرب، إذ يتقبل 14 في المائة فقط من مواطني هذه الدول حرمان المدنيين.

يعتقد أكثر من 80 في المائة من المستجيبين أن مهاجمة المستشفيات وسيارات الإسعاف والعاملين الصحيين أمر خاطئ

يوافق 9 من أصل 10 من المستجيبين على أن لكل شخص مصاب أو مريض خلال نزاع مسلح الحق في الحصول على الرعاية الصحية

آراء مشجعة

وفي المقابل، كشف تقرير «**الناس حول الحرب 2016**» عن آراء أخرى تبعث على الارتياح، إذ تعتقد الغالبية العظمى من الناس

النتائج الرئيسية
«الناس حول الحرب» 2016

■ **الناس الذين يعيشون في البلدان المتضررة من الحرب يعتقدون أن لقانون الحرب أهمية. ويعتقد أكثر من ثلثي من شملتهم الدراسة أنه ما يزال من المنطقي أن تفرض قيود على الحرب. ويعتقد نحو نصف الذين شملتهم الدراسة في البلدان المتضررة من النزاعات أن اتفاقيات جنيف تمنع تفاقم الحروب.**

■ **تلقي نتائج الدراسة الضوء على أن العنف ضد الرعاية الصحية أمر غير مقبول. ويرى أكثر من ثلاثة أرباع الذين شملتهم الدراسة أن الهجوم على المستشفيات وسيارات الإسعاف والعاملين في مجال الرعاية الصحية هو أمر خاطئ.**

■ **بالمقارنة بعام 1999، هناك درجة أعلى من القبول بين الناس الذين يعيشون في الدول الخمس (دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي: الصين، وفرنسا، وروسيا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة)، وسويسرا أن موت المدنيين في مناطق النزاع يُعد أمرًا لا يمكن تفاديه من الحرب.**

■ **على مدار العقدين الماضيين، حدث تحول في مواقف الناس تجاه التعذيب. ويذكر ثلثا الأشخاص الذين شملتهم الدراسة في عام 2016 أن التعذيب أمر خاطئ. غير أنه عندما سُئلوا تحديدًا عما إذا كان من الممكن أن يتعرض أحد مقاتلي العدو للتعذيب، فإن عدد الناس الذين لم يوافقوا على هذا الأمر جاء أقل مما كان عليه في عام 1999.**

■ **الغالبية العظمى من الناس يدركون أن استهداف المدنيين وعمال الإغاثة والمستشفيات، ممارسات خاطئة وأنه يجب توفير الحماية للمدنيين والعاملين الصحيين ومرافق الرعاية الصحية.**

ICRC

أوكرانيا، 2016

في أهمية قوانين الحرب، وضرورة الالتزام بالقواعد الأساسية للقانون الإنساني الدولي ومبادئه: تجنب تدمير البنية الأساسية المدنية، حماية المنشآت الطبية والأطقم الطبية، وكذلك تفادي استخدام الأسلحة ذات القوة التفجيرية الضخمة في مناطق مأهولة بالسكان. ومن أمثلة هذه الآراء، ما أبداه أكثر من نصف من شملتهم الدراسة في البلدان المتضررة من الحرب (55 في المائة)، ردًّا على سؤال «**إذا لم يحترم المقاتلون قوانين الحرب، هل يعطي هذا الأمر الحق لمقاتلي الطرف الآخر ألا يحترموا القوانين أيضًا؟**»، إذ قالوا إن انتهاكات قانون الحرب التي يرتكبها أحد الأطراف، لا تعطي الطرف الآخر الحق في ارتكاب الانتهاكات نفسها. ورأت الأغلبية في البلدان المتضررة من النزاعات أن قوانين الحرب لها أهمية. فقد طرح الاستطلاع سؤالًا: «**لقد جرى تبني اتفاقيات جنيف لعام 1949 مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية، أي قبل حوالي 70 عامًا. الحرب اليوم مختلفة تمامًا. هل لا يزال من المجدي فرض قيود في الحرب؟**»، وجاءت النتائج لتكشف أن ثلثي المستجيبين في الدول المنكوبة بالنزاعات، وكذلك من يعيشون في الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي وفي سويسرا يرون أنه ما زال من المجدي فرض قيود على كيفية خوض الحرب.

وأبدت الأغلبية الساحقة من المستجيبين تأييدًا كاسحًا لمبدأ «**لكل جريح أو مريض أثناء نزاع مسلح الحق في الرعاية الصحية**»، إذ ذكر نحو 9 أشخاص من أصل 10 أشخاص ممن شملتهم الدراسة يوافقون على أن لكل جريح أو مريض أثناء نزاع مسلح الحق في الرعاية الصحية. وجميع الأشخاص تقريبًا الذين وجه إليهم السؤال في البلدان المتضررة من النزاعات يقولون إنهم يوافقون على ذلك. كما عبرت الأغلبية عن رفضها القاطع لأي اعتداء على المرافق الصحية: المستشفيات وسيارات الإسعاف، وكذلك العاملين الصحيين. فقد ذكر أكثر من 8 أشخاص من أصل 10 أشخاص ممن شملتهم الدراسة، لا سيما الأشخاص في البلدان المتضررة من الصراعات، يعتقدون أن هذا الأمر خطأ ■

يعتقد 8 من أصل 10 من المستجيبين أنه يجب على المقاتلين تجنب إيذاء المدنيين قدر الإمكان عند مهاجمة العدو

REUTERS

حروب المدن

ثمن باهظ تدفعه الحواضر العربية

يعيش الملايين في العالم في مدن يتزايد فيها انعدام الأمن والفقر، بفعل أعمال «العنف الحضري» والنزاعات المسلحة التي قوضت في السنوات الأخيرة بعض أهم المدن التاريخية في الشرق الأوسط. وقد اكتسبت النزاعات التي تدور رحاها في الحضر أو «حروب المدن» أهمية فائقة بسبب تكلفتها الإنسانية الهائلة، كالصراع الضاري حاليًّا في المدن الليبية، وقبلها في مدن العراق مثل بغداد والبصرة، وفي مدن سورية، خاصة حلب التي تشهد حاليًّا «أكثر حروب المدن تدميرًا في التاريخ المعاصر». في هذا الملف نحاول تغطية أهم أبعاد ومظاهر «العنف الحضري» و«حروب المدن».

ثمن باهظ تدفعه الحواضر العربية

REUTERS

عانت المدن العربية زمنًا طويلًا بفعل تدني معدلات التنمية، وارتفاع معدلات الفقر وغياب العدالة الاقتصادية والاجتماعية. وعندما اندلعت «ثورات الربيع العربي»، فإنها كانت بمثابة ثورات مدن جريحة غارقة في التهميش والعنف الحضري. تحاول هذه المقالة تسليط الضوء على الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية للعنف الحضري كما نعرفه اليوم.

تحتج وتنزف الدماء:

مدن عربية تتداعى بفعل العنف

أغلبية ضحايا الموجة الأولى من العنف الذي رافق «الربيع العربي» هم أبناء المناطق الحضرية

إذا عاد المرء بذاكرته للوراء، مسترجعًا أحداث يوم لم يَطل عليه الأمد بعد، وهو يوم الجمعة 17 كانون الأول/ ديسمبر من العام 2010، سيجد أن نشرات الأخبار الرئيسة في ذلك اليوم لم تحمل ما هو فريد واستثنائي. لكن خبرًا «هامشيًّا» عن انتحار شاب في مدينة تونسية صغيرة، سرعان ما سيتصدر الواجهة. فيومئذ أقدم الشاب التونسي **محمد البوعزيزي** (29 آذار/ مارس 1984–4 كانون ثاني/ يناير 2011)، على إضرام النار في نفسه، احتجاجًا على مصادرة السلطات المحلية في مدينة **سيدي بوزيد** التونسية لعربة خضار بسيطة كان يتكسب منها رزقه. تسلسل الأحداث فيما بعد معروف، فقد فجرت الحادثة موجة غضب عارمة اجتاحت مدن تونس وريفها، وسرعان ما انتقلت عدواها وعبرت الحدود، فهب ملايين من السكان العرب في فورة احتجاج عاتية، أسقطت حكامًا، وقوضت نظمًا، وأحيت آمالًا في نيل الحرية والكرامة والرخاء.

«عنف المدينة»

بعيدًا عن التفسيرات السياسية المباشرة لـ «الربيع العربي»، يمكن قراءة تفاصيل المشهد الاحتجاجي العربي الكبير على أنه صيحة احتجاج للمدينة العربية، أو للمناطق الحضرية، على عقود من فشل التنمية الاقتصادية والسياسية. إذ إن الأغلبية الغالبة من تفاصيل «الربيع العربي» هي تفاصيل حضرية أو مدينية. فالشاب **البوعزيزي**، (27 عامًا عندما أضرم النار في نفسه)، إحدى نتائج أزمات المدينة العربية المستفحلة. هو بائع حضري على الهامش، أو بصياغة أخرى «مهمش حضري» يعاني الأمرين: صعوبة الحياة وفق معدلات تنمية هزيلة، ومعها تحديات مخيفة

REUTERS

اضطرابات في القاهرة، 2013

نتيجة تسارع معدلات تحضر المدن العربية، حتى الصغيرة منها، وما تفرزه هذه المعدلات من فقر وتهميش لقطاعات أكبر من السكان. ومن ناحية ثانية، يعاني هذا «المهمش الحضري» من سطوة ملاحقات السلطات البلدية الرامية دومًا إلى تحقيق درجة من ضبط الفضاء الحضري وتنظيمه. وهو ضبط وتنظيم لا يتحقق في الحالة العربية، غالبًا، إلا بمصاحبة العنف والقسوة. ومقتل البوعزيزي هنا ليس باستثناء، فللمدينة العربية محصولها الوافر من العنف الحضري، لعل آخر حلقاته، ذائعة الصيت، ما وقع في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، عندما سُحق بائع السمك محسن فكري (31 عامًا) حتى الموت في شاحنة لضغط النفايات في مدينة **الحسيمة** المغربية أثناء محاولته استعادة أسماك صادرتها منه الشرطة.

ولما كان «الربيع العربي» واحدًا من أكثر الأحداث الجماعية تصويرًا وتوثيقًا في الذاكرة المعاصرة، فمن السهل العثور على لمحات حضرية أخرى في مشهد الأفعال الاحتجاجية. فقطاع لا بأس به من المشاركين في حدث «الربيع العربي» هم «**بوعزيزي**» آخرون. «ثوار» أنجبتهم الفضاءات الحضرية العربية. أضف إلى ذلك أن أغلبية ضحايا الموجة الأولى من العنف السياسي الذي رافق «الربيع العربي» هم أبناء المناطق

أ. ز. عثمان

الحضرية، خاصة الفقيرة منها. تقدم الثورة المصرية مثالًا حيًّا على الهامشيين الحضريين كوقود للانتفاضة السياسية. إذ انتمى معظم قتلى يوم 28 كانون الثاني/ يناير 2011 في القاهرة، التظاهرة الاحتجاجية الأعنف على حكم الرئيس الأسبق **حسني مبارك**، إلى مناطق حضرية فقيرة: حي «**الزاوية الحمراء**» وحي «**المطرية**»، أو أحياء الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى كحي «**السيدة زينب**» في القاهرة، ومحيط ميدان «**المنشية**» في الإسكندرية، على ما تشير الأرقام التي جمعها موقع «**ويكي ثورة**» عن ضحايا الاحتجاجات المصرية*. وتنطبق هذه السمة أيضًا على الحالة السورية. فقد شكلت المناطق الحضرية ساحة الاحتجاج الرئيس الذي بدأ قبل ست سنوات: كالأحياء الحضرية الفقيرة من حمص مثل «**بابا عمرو**»، وكذلك «**الغوطة**»، وهو فضاء ريفي، لكنه شهد نموًّا حضريًّا متسارعًا منذ عقد الثمانينيات.

والحيز المكاني الذي دارت فيه الهبات العربية ملمح حضري آخر. فقد كانت المدن حاضرة ومهيأة لاحتضان الاحتجاجات، بفعل توفر بنية أساسية حضرية، مترهلة نعم، لكنها تفي بالغرض في حالة الاحتجاجات: فهناك شبكة طرق داخلية تربط الأحياء، وهناك شبكة اتصالات متاحة لتيسير التواصل بين المحتجين، وحوائط المباني العامة أو الخاصة قائمة يمكن من خلالها نقل الرسائل الاحتجاجية عبر «الجرافيتي»، وأخيرًا وليس آخِرًا، الساحات أو الميادين موجودة لإبداع مختلف أشكال الاحتجاج من هتاف وغناء وإلقاء خطب ورفع لافتات. هكذا جرى تصوير «الربيع العربي» في ميادينه وساحاته: **ميدان التحرير** في القاهرة، ساحة **القائد إبراهيم** في الإسكندرية، والساحة المقابلة لبوابة جامعة صنعاء (**ساحة التغيير** فيما بعد)، و**ساحة القصبة** في تونس، وغيرها.

أحوال المدن «ناقصة» عن الضروري

عانت المدن العربية اضطرابًا ملحوظًا طيلة عقود، إذ ترتفع معدلات التحضر بنسب هي من الأعلى في العالم. فمنذ عقد السبعينيات، ولأسباب اقتصادية متنوعة منها الطفرة النفطية لدول الخليج العربية، ارتفعت معدلات النمو الحضري في العالم العربي نحو 400 في المائة. تحولت الأرياف العربية إلى حواضن للمباني السكنية الحديثة والشوارع المكتظة، وتغير طابع البادية، لتستضيف ناطحات سحاب ومراكز تسوق تجارية تضاهي مثيلاتها العالمية. ويعيش الآن أكثر من نصف سكان العالم العربي (نحو 360 مليون نسمة) في مناطق حضرية، ويتوقع أن ترتفع هذه النسبة إلى نحو 70 في المائة بحلول عام 2050 (متوقع أن يبلغ سكان العالم العربي حينها 646 مليون نسمة)**. وفي المقابل، عجزت المدينة العربية عن الاستجابة للتحديات التي تفرضها معدلات التحضر المتسارعة هذه، بدءًا من الصراع اليومي لتوفير الاحتياجات الأساسية، مرورًا بترهل البنية التحتية: مرافق المياه والكهرباء والصحة والتعليم. هذا ناهيك عن «الانتفاخ الشبابي» (Youth Bulge)، وهو ارتفاع نسبة الشباب مقارنة بالفئات العمرية الأكبر سنًّا. فنحو 60 في المائة من سكان العالم العربي أقل من 25 عامًا. وطبيعي أنه ولأسباب تتعلق بغياب الفرص في الحياة الكريمة، وارتفاع معدلات التهميش والفقر، وصعوبة الحراك الاجتماعي أن ترتفع معدلات الاستقطاب الاجتماعي والاقتصادي وكذلك العنف الحضري. ومع ذلك، راجت نظريات وتفسيرات وآراء تبسيطية نظرت إلى المدينة العربية على أنها فضاء مكاني لا يضربه التغيير، وتعيش فيه شعوب لا تحرك ساكنًا. أما العنف الحادث في البيئات الحضرية العربية، فهو حسب هذه الرؤى، ليس بالعنف الحضري المألوف، ذلك لأن الغضب الحضري هو نتاج سياسي لأزمة واحتقان اقتصادي واجتماعي. وهذا العنف يتطلب حداثة ما، لم تحققها الحواضر العربية***.

لم تفطن هذه النظرات التبسيطية إلى تحولات عقود في المنطقة العربية، قلبت الأمور رأسًا على عقب. ارتج بنيان الدولة العربية بفعل ذلك الانتقال الحثيث لمدنها على حساب الريف ومن ثم اتساع وتطور المجال الحضري العام. ولم تعد المدينة العربية، كما كانت في العصور الوسطى، مجرد حاصل جمع المباني الأربعة: المسجد والسوق والقلعة والسور. لم تعد المدينة العربية ولا أهل الحضر كما وصفهم **ابن خلدون** في مقدمته «**أن أحوالهم [أهل المدن] زائدة على الضروري**». فقد تبدلت أحوال حضر العالم العربي إلى نقص في الضروريات. وتغيرت بنية وهيكل المدن العربية، فانقسمت المدينة العربية إلى مدينتين، واحدة للأغنياء وأخرى للفقراء، على ما يقول الراحل **عبد الرحمن منيف** في «**سيرة مدينة**». في «**مدينة الفقراء**»، غاب الحد الأدنى من ضرورات الحياة الكريمة، مترافقًا مع انسداد سياسي وعجز الدولة العربية عن الاستجابة لمطالب السكان. وفي لحظة قبل ست سنوات، انفجرت المجتمعات الحضرية، رافعة قائمة مطالب عريضة، إلا أن العنف كان لها بالمرصاد. قوض هذا العنف مدنًا، وأنهك أخرى.

عنف المدن عنفان

يشير «العنف الحضري» هنا إلى طائفة عريضة من الممارسات الصراعية داخل المناطق المدينية، وتشمل اضطرابات وتوترات داخلية، وأعمال شغب، تؤدي للإخلال بالنظام العام، وتتضرر

REUTERS

في تونس العاصمة عشية ثورتها. 2011

منها الفئات الأكثر استضعافًا. ويرتبط «العنف الحضري» أوثق الارتباط بالتحول في المشهد العمراني للمدينة واتساع النطاق الحضري اتساعًا مطردًا. ومع هذا الاتساع تظهر أزمات من اكتظاظ السكان، وتردي أحوال البيئة، وتهدم المساكن والبنية التحتية والخدمات، وما يسفر عنه من مشكلات اجتماعية. ويندرج «العنف الحضري» قانونًا تحت مظلة «**حالات العنف الأخرى**» التي تنص عليها اتفاقيات جنيف. «العنف الحضري» هو أعمال عنف، لكنه لا يمثل نزاعًا مسلحًا دوليًا أو غير دولي. وهو يشمل الاضطرابات المدنية والشغب وأعمال «الإرهاب». وفي السنوات الأخيرة، أبدت اللجنة الدولية اهتمامًا بهذا الشكل من العنف في «البيئات الحضرية» نظرًا لما له من عواقب إنسانية وخيمة، وتأثير فادح على التنمية المستدامة، إذ إنه يضع ملايين البشر، ممن يعيشون في مناطق شديدة الخطورة، في دائرة التجاهل. وحسب اللجنة الدولية، فالعنف هو «**المحرك الأساسي، في بقاع كثيرة من العالم، لانتكاسات التنمية في المدن**»****.

هناك نمط آخر من العنف يواجه المناطق الحضرية وهو النزاعات المسلحة التي تتخذ من المدن مسرحًا لها. هذا النزاع المسلح هو «حروب المدن»، وهو يختلف عن «العنف الحضري» في أن مستوى العنف أشد، والأضرار الناجمة عن القتال أكبر. وحسب اللجنة الدولية فهناك في العالم حاليًا نحو 50 مليون شخص يتضررون من النزاع المسلح في المناطق الحضرية. ويتحول كثير منهم إلى نازحين داخليًا في المناطق الحضرية. وتدك «حروب المدن» حاليًا أربع دول عربية في سورية وليبيا واليمن وقبلها في العراق. ويقول خبراء إن واحدة من أهم خصائص حروب ما بعد «الثورات العربية»، هو أنها نزاعات تدور في الغالب في حيز حضري مكتظ بالسكان ما يؤدي إلى ارتفاع التكلفة الإنسانية لهذه النزاعات. فقد جرى تقويض حواضر كاملة، تتطلب سنوات طوالًا، وربما عقودًا، لإعادة الإعمار. وهناك أذى مباشر أصاب المدنيين، أوقع عشرات الآلاف من القتلى، ومئات الآلاف من المصابين، وكذلك نزوح يتكرر ويطول أمده من المناطق الحضرية وإليها.

أجندة حضرية إنسانية

«العنف الحضري» و«حروب المدن» كانا على أجندة مؤتمر أممي مهم، عُقد في **كيتو** بالإكوادور في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، بهدف إقرار منظومة من السياسات والالتزامات الدولية الرامية إلى مساعدة المدن على مواجهة التحديات الحضرية. أبرز هذه التحديات تتمثل في مشاكل الفقر وعدم المساواة، وارتفاع معدلات العنف الحضري، وكذلك النزاع المسلح الواقع في المدن. وقد تبنى **مؤتمر الأمم المتحدة للإسكان والتنمية الحضرية المستدامة** (**الموئل الثالث**) خطةً حضريةً جديدةً، مفسحًا مجالًا واسعًا لحماية المدنيين في المناطق الحضرية في وقت النزاع المسلح.

ومع أن هذه ليست المرة الأولى التي تشير فيها **قمة الموئل** إلى التحديات الإنسانية للعنف في المناطق الحضرية، سواء كان العنف الحضري المزمن، أو العنف الذي يتخذ شكل حروب المدن، إلا أن الإشارة السابقة المتمثلة في الوثيقة الختامية النهائية الصادرة عن **قمة الموئل الثاني** (عُقدت في **إسطنبول** في عام 1996) تضمنت طرحًا خجولًا حول التحديات الإنسانية التي تواجه المدن. علاوة على ذلك، فالمشهد الحضري الآن، وقت عقد قمة الموئل الثالث، أشد ضراوة مما كان عليه قبل عشرين عامًا. وتشير خبرة السنوات الماضية إلى مأساة حقيقية في حروب المدن، ففي العالم العربي مثلًا أدى النزاع المسلح في المناطق الحضرية إلى أضرار مباشرة بالمدنيين، من قتل وحصار وتجويع وإجبار على النزوح، علاوة على تدهور طويل الأمد في الخدمات والبنية التحتية الأساسية في المناطق الحضرية.

ونظرًا لخبرة اللجنة الدولية العريضة في العمل في مناطق العنف الحضري، إذ تقف شاهدة على العواقب الإنسانية الوخيمة لحروب المدن، فقد أدت دورًا مؤثرًا في دفع قمة الموئل الثالث على تبني أجندة حضرية تضع المدنيين والفئات الأكثر استضعافًا في أولويات التخطيط الحضري.

وقد شاركت اللجنة الدولية في المؤتمر برؤية عن العمل الإنساني في المناطق الحضرية. وتتمثل المرتكزات الأساسية للرؤية في: احترام القانون الدولي الإنساني أثناء حروب المدن، ودعم خدمات حضرية قادرة على الصمود أثناء النزاع المسلح، ومساعدة الحكومات على العمل مع الأشخاص المتضررين من العنف المزمن في المناطق الحضرية. كما طرحت اللجنة الدولية، بناءً على هذه المرتكزات، توصيات عشرًا، ينبغي لها أن تُدمج في صلب أي سياسات جديدة تستهدف أمن المدن وسلامتها وقدرتها على الصمود. وتُعنى هذه التوصيات باتخاذ تدابير تحد من تأثير النزاع المسلح وأشكال العنف الأخرى على التنمية الحضرية. وتشمل التوصيات احترام قواعد القانون الدولي الإنساني في فترات النزاع المسلح في المدن، وهذه تتضمن أن تتجنب الدول - قدر المستطاع - وضع الأهداف العسكرية داخل المناطق المكتظة بالسكان أو بالقرب منها، وحظر الهجمات العشوائية على المدنيين، وتجنب استخدام الأسلحة المتفجرة التي لها تأثير واسع النطاق في المناطق المأهولة بالسكان. كما تشمل قائمة التوصيات، دفع الدول إلى تبني أجندات تنموية كتبني سياسات لتمكين المجتمعات المحلية التي تعيش في مناطق حضرية يسودها العنف ■

★ مصدر الإحصائيات هو «ويكي ثورة» المعني بحصر قتلى ومصابي أعمال العنف التي جرت في مصر منذ 25 كانون الثاني/ يناير 2011. https://wikithawra.wordpress.com/

★★ لمزيد من المعلومات عن الحالة الحضرية في العالم العربي، انظر التقرير المهم الذي أصدره برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية (الموئل): Habitat, U. N. "The State of Arab Cities 2012: Challenges of Urban Transition." Nairobi: UN Habitat (2012).

★★★ هذا السجال مذكور في فصل مطول كتبته الأكاديمية من أصل إيراني ليلى خليلي بعنوان «التفكير في العنف»، المصدر: Khalili, Laleh. "Thinking about violence." International Journal of Middle East Studies 45, no. 04 (2013): 791–794.

★★★★ مذكورة في: ورقة سياسات: العنف المسلح والخطة الحضرية الجديدة، توصيات اللجنة الدولية لمؤتمر الموئل الثالث، الرابط: https://goo.gl/RWTeka

لا أحد يبكي على مدن اليمن

ليس للحرب نواميس في اليمن، ففي عشية أو ضحاها قد يجد عشرات المدنيين أنفسهم فجأة تحت أنقاض مدن كانت عامرة بالحركة قبل أشهر قليلة مضت. ومع استمرار القتال، ترتفع كلفة الحرب على المدنيين، ويزداد تدمير الأعيان المدنية والبنية التحتية لأغلب المدن اليمنية

نشوان محمد السميري*

استهداف المدن والممتلكات العامة والخاصة نمط مألوف خلال النزاع الجاري في اليمن

كلمة «مروّعة» هي الكلمة التي لجأت إليها بعض التقارير الصحافية لوصف النتائج المدمرة لما فعله قصف الطيران على مدن اليمن. لقد انسحبت وكالات الإغاثة تاركة البلاد في شح حاد في أسرَّة المستشفيات والمعدات الطبية. وقد أصاب نحو ثلث الغارات الجوية المدنيين في حواضر المدن اليمنية. كما استهدف بعضها المدارس والمستشفيات.

وتحصي دراسة أنه خلال الحرب في اليمن وقع 942 هجومًا على مناطق مأهولة بالسكان المدنيين، و144 هجومًا على أسواق، و147 هجومًا على مدارس، و26 هجومًا على جامعات، و378 هجومًا على وسائل مواصلات.

لقد ظلَّ استهداف المدن والممتلكات العامة والخاصة نمطًا مألوفًا خلال النزاع الجاري في اليمن. ففي **تعز** وحدها تعرضت أسواق مزدحمة وأحياء سكنية ومستشفيات ومدارس إلى قصف مدفعي متكرر بقذائف الهاون ومدفعية وصواريخ غراد. وفي أيلول/ سبتمبر الماضي، تعرض حيُّ سوق الهنود، أحد أحياء مدينة الحديدة الساحلية (226 كيلو غرب **صنعاء**) للقصف. وتحولت بعض مساكنه المجاورة للقصر الجمهوري نهاية أيلول/ سبتمبر الماضي إلى ركام يرزح تحته عشرات القتلى والجرحى. وذكرت **اللجنة الدولية للصليب الأحمر** أن نحو نصف مستشفيات مدينة **تعز** توقفت عن العمل بسبب نقص الإمدادات أو الوقود أو جراء تضرر المرافق أثناء القتال. وقد ازداد الوضع سوءًا مع استمرار المعارك واشتدادها. لقد فقدت مدينة **تعز**، العامرة بأسواقها وشوارعها المكتظة والحيَّة وعراقة أحيائها، نكهة السلام ودبيب الحياة اليومية المألوف والصاخب. وتحول كثير من مبانيها إلى أطلال تسكنها الأشباح، واحتلت طوابير النساء والأطفال للبحث عن الماء وغاز الطهي والطعام حيِّزًا كبيرًا من المشهد اليومي في شوارع المدينة.

فقد ودعت تلك الأرصفة منذ عامين تقريبًا – إلى أجل قد يطول أو يقصر – الإحساس المدهش بالاستقبال اليومي المبهج لشروق الشمس وولادة يوم جديد. وفيما أخذت مدينة **عدن** ومدن أخرى في الجنوب في التعافي ببطء من موجة الدمار التي عصفت بها بفعل السعي إلى السيطرة عليها العام 2015، ما زالت مدنٌ عديدة اليوم تقاسي ويلات الحرب والدمار في تهديدٍ جدِّي لقلة قليلة باقية من ملامحها وإنسانيتها.

ICRC

اليمن، 2016

أصول الأزمة

منذ آذار/ مارس من العام الماضي، يشهد اليمن – أشد البلدان العربية فقرًا وذو الخمسة والعشرين مليون نسمة – نزاعًا مسلحًا نتج عن انقسام سياسي حادٍ وأزمة سياسية خانقة سبَّبها

* كاتب يمني

ICRC

اليمن، 2016

أرقام مخيفة

يوشك الستار أن ينسدل على عام ثانٍ من النزاع الضاري في اليمن الذي خلق أزمة إنسانية ضخمة، دفع ثمنها المواطنون العاديون في أشد الدول العربية فقرًا.

- **أودى الصراع بحياة أكثر من 10,000 شخص وشرد ملايين حتى آب/أغسطس 2016.**
- **أكثر من 14,000,000 نسمة، هم أكثر من نصف سكان البلاد، يعانون الجوع بسبب النقص الحاد في المواد الغذائية الذي أوصل معظم أنحاء البلاد، مدنًا وريفًا، إلى شفا المجاعة وفقًا لتقديرات الأمم المتحدة.**
- **نحو 1,500,000 طفل مصابون بسوء التغذية، منهم 370,000 طفل معرضون للخطر الداهم بسبب سوء التغذية الحاد، وفقًا لمنظمة الأمم المتحدة للطفولة (يونيسيف).**
- **هناك نحو 1500 حالة اشتباه بالإصابة بمرض الكوليرا، حسب منظمة الصحة العالمية في تشرين الأول/ أكتوبر. والسبب الرئيس لظهور هذا المرض الخطير هو تدمير معظم منشآت البلاد الصحية ومرافق إمدادات المياه النقية فيها.**

الصراع على السلطة، أو كان هذا عنوانها الأبرز. وفي الواقع، أضاع اليمنيون فرصة ذهبية للخروج من عنق الزجاجة بعد تداعيات «الربيع العربي» تمثلت في مخرجات «**مؤتمر الحوار الوطني**» التي لاقت إجماع مختلف القوى السياسية في العام 2013. لكن جاءت أزمة العام 2014 لتربك المشهد السياسي برمته، وتُدخِل البلادَ في أتون صراع مسلح أوشك على إتمام عامه الثاني دون أي بارقة أمل لإنهائه. ومع استمرار القتال وفشل كل محاولات التفاوض والتسوية التي رعتها الأمم المتحدة حتى الآن؛ تزداد كلفة الحرب على المدنيين؛ وتتنامى بعد إزهاق أرواح أكثر من عشرة آلاف شخص، وإصابة آلاف آخرين حتى أيلول/ سبتمبر الماضي، وتدمير كثير من الممتلكات العامة والخاصة، فيما تشير التقارير إلى نزوح أكثر من ثمانية ملايين شخص خارج منازلهم.

أثر بعد عين

تركَّز الصراع المسلح في اليمن منذ اندلاعه في بعض المدن الكبرى، ولم يمنع هذا انتشار تداعيات القتال المفزعة إلى مناطق البلاد المختلفة. عانى اليمن ريفًا وحضرًا على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي أو على مستويات الأمن النفسي والجسدي والغذائي للمواطنين. فقد دكت آلة الحرب دون هوادة تلك المكتسبات التنموية التي حظي بها اليمنيون بمشقةٍ وجهدٍ بالغيْن خلال عقود ما بعد ثورة العام 1962، وأصبحت المباني الحكومية والعسكرية والمدارس والمشافي ومنازل المواطنين أهدافًا عسكرية محتملة، حتى مدينة **صنعاء** القديمة المحمية ضمن التراث العالمي لم تسلم بعض أبنيتها التاريخية من التدمير. طمس القتال بعضًا من أهم معالم المدن التي ألفها الناس، خاصة التاريخية منها مثل «**العرضي**»، مقر وزارة الدفاع حاليًا، وهو من مآثر الأتراك في اليمن. فيما تحول غيره من الأبنية في بعض مناطق النزاع إلى أثرٍ بعد عين. كما تعرضت البنية التحتية، مثل الشوارع والجسور، للضرر، سواء داخل المدن أو تلك القليلة التي شكلت – حتى وقت قريب – شريانًا ضروريًّا يربط بين المدن. وبينما يصبح التوجس والقلق هو السمة النفسية الغالبة لتنقل الناس في شوارع المدن اليمنية، يتحول الأمر إلى خوفٍ حقيقي جوار المعسكرات أو المرافق، خاصة الحكومية، المعرضة للاستهداف. وفي بعض مدن اليمن، لم يعد هناك مكان آمن، فالحيز العمراني مُعَرض باستمرار لخطر القصف والتدمير. ويمكن بسهولة ويسر رصد الدمار المؤلم الذي يحدثه القتال في مدن مثل **صنعاء** و**تعز** وغيرهما. كما أن معاناة السكان في المناطق الحدودية في محافظتي **صعدة** و**حجَّة** بفعل القصف والمواجهات لا تقل إيلامًا ومأساوية، وهي الغائب الأبرز عن المشهد الإعلامي المتاح. ويدفع المدنيون في كل مدن اليمن وقراه ثمنًا باهظًا لا يستهان به في حرب باتت عبثية تأبى الصمت احترامًا لكرامة الإنسان. وفي ظل انشغال المتحاربين اليوم بالصراع المسلح، يبرز تهديد جدي مستمر من نوع آخر عنوانه التنظيمات المسلحة الموسومة بـ«الإرهابية»، إذ يسعى هؤلاء للاستفادة من حدوث أي فراغ أمني أو عسكري، وهو ما وقع بالفعل في جنوب اليمن في **أبين** و**حضرموت** خلال العامين الماضيين.

أمل اليمنيون في إرساء أسس الدولة القادرة على تحقيق المبادئ التي نادت بها مواثيق الحقوق والدساتير العادلة، وكاد حلمهم المشروع هذا أن يوشك على التحقق، لكنهم اليوم باتوا فقط يتوسلون الأمن والسلامة والحفاظ على نزْرٍ قليلٍ متبقٍ من ملامح المدنيَّة والعمران المهددة بدورها بالتدمير والزوال في حال استمرار الحرب وامتدادها إلى مدن أخرى ما زالت في منأى عن الصراع القائم. وكم يأمل اليمنيون – في لحظة فارقة اليوم من تاريخهم المعاصر– ألا يتجاهل المجتمع الدولي الحرب الدائرة في مدنهم وقراهم، في ظل تعاظم مآسيها وتفاقم خطر استمرارها إقليميًّا وعالميًّا، وحتى لا تصبح الحرب في اليمن «حربًا منسية»، أو أن تصبح مدن اليمن –الوادعة إلى عهد قريب– مدنًا لا يبكي عليها أحد ■

سناء علي*

صوت المعارك صباحًا، وطرب الغناء ليلًا:

هنا حلب أو مدرسة تعلم ثقافة الحياة

حصدت مدينة حلب السورية من الأرواح، ما جعل الموت نمط حياة مأساويًّا اعتاده سكان المدينة. فهكذا ودون سابق إنذارٍ، قد تمطر السماء بالقذائف والصواريخ، وبمجرد أن يتوقف القصف، تكتظُّ الشوارع بالمارة، ويعود الحلبيون إلى نشاطهم وكأن شيئًا لم يكن.

يحتفلون بالمولد النبوي الشريف في حلب، 2015

REUTERS

في ساعة متأخرة من الليل، ينشغل المراسل الحربي **سومر حاتم**، المقيم في فندق **بولمان الشهباء** بمدينة **حلب**، بإعداد تقاريره الخبرية. تصل إلى مسمعه أصوات موسيقى قريبة. يطل من نافذة غرفته ليشاهد عرسًا على سطح أحد المنازل القريبة. مدهشة هي **حلب**، توقظك في الصباح على صوت المعارك، وتزعجك في الظهيرة بصوت سيارات الإسعاف التي تجوب المدينة بعد يوم دام مثلًا سقطت فيه عشرات قذائف الهاون على المدنيين، لتعود وتطربك في الليل بأصوات الغناء والموسيقى. يشرح **حاتم**، وهو أصلًا من اللاذقية: «في كل مرة أزور فيها **حلب** يغالبني الفضول لأعرف كيف تنعكس التطورات العسكرية والأمنية على حياة المدنيين في المدينة. لديَّ رغبة كبيرة في تصوير يومياتهم لأنقلها إلى خارج المدينة. هذا جزء من عملي الصحافي. هل تصدقون مثلًا أن أسعار بعض المواد هنا كالألبسة أقل عن مثيلاتها في باقي المدن، بالرغم من كل الصعوبات الاقتصادية التي تعانيها؟ هل تصدقون أن هناك حفلات وأعراسًا ومقاهي ومطاعم في **حلب**؟ أحلى ما في **حلب** هو إصرار أبنائها على المقاومة برغم كل جراحهم، هنا في **حلب** مدرسة لتعلم ثقافة الحياة».

ذكريات سكان غائبين

اليوم، هناك عدد قليل من السكان في **حلب** القديمة الذين رفضوا مغادرة منازلهم. فالمنطقة تعتبر خط تماس بين **حلب الشرقية** الواقعة تحت سيطرة الجماعات المسلحة وبين **حلب الغربية** التي تسيطر عليها الحكومة السورية. احذر، وأنت تمشي بين محلاتها المغلقة وبيوتها العتيقة، أن تتعثر بذكريات سكانها الغائبين. يبدو المكان وكأنَّ الزمان قد توقف هنا منذ سنوات ولم يتبقَّ منه سوى بقايا البضائع والأقمشة في

* صحافية سورية

حلب أشد النزاعات الحضرية تدميرًا في العصر الحديث

في آب/ أغسطس الماضي، وصف بيتر ماورير، رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، النزاع في حلب بأنه «بلا أدنى شك، أشد النزاعات الحضرية تدميرًا في العصر الحديث». لقد احتدم القتال في النصف الثاني من العام 2016، مخلفًا مئات القتلى وعددًا لا يحصى من الجرحى، فضلًا عن تعطل جميع الخدمات العامة تقريبًا، وكذلك الحصار المضروب على عشرات الآلاف من السكان. وأدى القصف النيراني المستمر إلى تدمير منازل ومدارس ومستشفيات، وأجبر عشرات الآلاف من السكان على الفرار من ديارهم، واضطرت كثرة غيرهم إلى مغادرة الملاجئ المؤقتة التي كانوا يعيشون فيها. ولحقت أضرار هائلة بالبنية التحتية للمدينة. ومع قطع الإمداد بالمياه والكهرباء أو خفضه بشدة، يصبح السكان مهددين بالخطر من استخدام مياه غير معالجة وغير آمنة. يعيش السكان في حالة فزع. ويعاني الأطفال من الصدمة. وحجم المعاناة رهيب. لقد ظل سكان حلب يعانون الأمرين لمدة أربع سنوات بسبب هذه الحرب الضروس، ولا يزداد الأمر إلا سوءًا.

ورشات الحياكة ومحلات الملابس والستائر التي اشتهرت بها **حلب**. سترى مثلًا بعض الملابس المعلقة على الحبال، إذ لم يتسنَّ لأصحابها جمعها قبل أن يهجروا مساكنهم أو يقضوا نحبهم في المعارك.

في حارة **بحسيتا** بمنطقة **حلب القديمة**، رفض الخياط **زكريا موصلي** (45 عامًا) هجر منزله الذي يقطنه مع عائلته. فقد أصرَّ على الاستمرار في عمله بالرغم من خطورة التنقل من وإلى داخل الحي بسبب القذائف أو رصاص القناصة الذي يمكن أن يصيبه وهو يمر بين المناطق والنقاط العسكرية لإحضار القماش وأدوات الخياطة. يتحدث موصلي وهو منكبٌّ على آلته يخيط القماش: «**أنا الخياط الوحيد في حلب القديمة**»، ويضيف: «**لديَّ زبائن أوفياء يأتون من داخل حلب، بالإضافة لجنود ولضباط الثكنات القريبة من هنا**». يتخذُ زكريًّا من غرفة في بيت مهجور– يملؤها الغبار

AFP

توثيق ما تبقى من حلب، 2016

وبقايا الأقمشة وبكرات الخيطان– ورشةً صغيرة يواصل فيها عمله: «**هنا منزلي، وهنا عملي، وهنا كل ذكرياتي. لم أخرج بالرغم من خطورة المكان، ولست نادمًا على قراري**». يعاني الحلبيون ككل السوريين من الأوضاع الاقتصادية المتردية بسبب الحرب، إلا أنهم يحاولون التكيُّف مع هذا الوضع القاسي. ففي **حديقة السبيل** الواقعة شمال مركز المدينة على سبيل المثال، تفترش عشرات العائلات المهجَّرة العشب متخذةً من الخيام والأثاث البسيط المقدم كمساعدات من منظمات الإغاثة مساكن لهم، إلى جانب العديد من الزوار الذين يجدون في الحديقة بعض التسلية التي قد تنسيهم بعض همومهم. تحكي **حنان** (30 عامًا)، وهي من سكان **حي السبيل** وزوَّار الحديقة: «**مرَّت علينا أيام صعبة جدًّا هنا في حلب، أحيانًا يسقط الكثير من القذائف بالإضافة إلى نقص المواد الغذائية، لكنني أخرج للتنزه هنا مع أبنائي هربًا من الكهرباء المقطوعة وبحثًا عن بعض الترفيه**». تشكل هذه الحديقة، التي يعرفها ويقصدها معظم سكان المنطقة، متنفسًا لهم، كما أنها مورد رزق لبعضهم الآخر، خاصة الوافدين من مناطق أخرى، إذ ينتشر الباعة والأطفال في أركان الحديقة إلى جانب بعض أصحاب المهن البسيطة. عمل **محمود علبة** (47 عامًا)، حلاقًا لمدة 27 عامًا، إلا أن الحرب أجبرته على هجر بيته في منطقة **مساكن هنانو** بريف **حلب** الشمالي. بانتظار الزبائن يقف **أبو أحمد**، كما يحب أن ينادوه، إلى جانب مقعد في الحديقة بالقرب من صندوقه الأسود الذي يحمل فيه أدواته البسيطة والفقيرة. «**عندما هربت من مساكن هنانو، جئت إلى حلب، وكان عليَّ أن أجد عملًا أعيش منه أنا وعائلتي، لكنني لا أعرف سوى المهنة التي عملت بها طوال حياتي وهي الحلاقة**». لم يكن الأمر سهلًا على الرجل أن يمارس مهنته هكذا في فضاء مفتوح، بعد أن كان يمارس مهنته في دكانه: «**كان الأمر صعبًا في البداية ومحرجًا جدًّا. لكن اليوم اعتدت الأمر وصار لديَّ زبائني الذين يعرفونني ويقصدونني، لا أطمع بالكسب الكثير ويكفيني ما أستطيع سد رمق أطفالي به**».

أزمة اقتصادية

مطلع العام 2016، قال البنك الدولي إن التكلفة الاقتصادية للحرب في سورية وانعكاساتها على دول المنطقة بلغت نحو 35 مليار دولار، وأن مدينة **حلب** السورية، هي الأكثر تضررًا جراء الحرب من بين 6 مدن أخرى، إذ بلغت نسبة التدمير فيها نحو 40 بالمائة. وبحسب رئيس غرفة صناعة **حلب فارس الشهابيّ** فإن «**ألف معمل في منطقة الليرمون الصناعية منهوبة بالكامل، بلا أي آلات أو خطوط إنتاج**»، مقدرًا الخسائر الاقتصادية في المنطقة بـ 10 ملايين دولار للمعمل الواحد تقريبًا. كما ذكر أنَّ عدد العمال في كل معمل يصل إلى نحو 100 عامل، أضحوا بلا عمل منذ تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2012، بعد توقف معظم معامل الريف الشمالي. حجم الدمار الكبير جعل من العسير منح تعويضات مناسبة للمتضررين، لكن العديد من تجار وصناع **حلب** نقلوا بعض الآلات الصغيرة واستثمروها في ورش صغيرة للصناعات النسيجية. بالطبع لا يمكن لتلك الورش أن تعوضهم عما خسروه لكنها على الأقل تؤمن حاجة أسواق المدينة. بعد ست سنوات من القتال تنتظر **حلب** انتهاء هذه الحرب بفارغ الصبر لتنفض غبار ركامها وترمم ما تبقى من حضارتها النازفة، لعلَّ الروح التي رفضت الاحتراق والموت طيلة تلك السنوات تعود إلى الحياة يومًا ما ليس بالبعيد كما يأمل أهلها الباقون ■

طالع فيديو هذه حلب، حيث لا يوجد مكان آمن، الذي يرصد فرار آلاف العائلات للنجاة بحياتهم. استخدم تطبيق ماسح الباركود هنا (Barcode Scanner).

حضارة حلب في مهب الريح

تقع مدينة حلب شمال غربي سورية على بعد 310 كم من العاصمة دمشق، وتعد إحدى أقدم المدن المأهولة بالسكان في العالم، فهي مأهولة منذ ما لا يقل عن أربعة آلاف عام. ونظرًا للأهمية التاريخية والعمرانية التي تتمتع بها المدينة، اعتبرتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، مدينة تاريخية لاحتوائها على تراث إنساني عظيم يجب حمايته. فحلب موطن أكثر من 150 أثرًا مهمًّا، تمثل مختلف الحضارات الإنسانية والعصور. لكن دخلت حلب على خط المواجهات العسكرية وتحديدًا في نهاية شهر تموز/ يوليو من العام 2012. واشتدت حدة المعارك المسلحة في قلب المدينة القديمة، ووصلت إلى أسوار المدينة القديمة. وفي أيلول/ سبتمبر 2012، أدت الاشتباكات إلى اندلاع حريق كبير دمر سوق المدينة القديم بالكامل وفي نيسان/ أبريل 2013، هُدمت مئذنة الجامع الكبير الذي يعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

البطيخ حلمًا في زمن حصار المدن:

أمنيات الخلاص الصغيرة في الوعر المحاصر

س.علي

«جائعة ومتعبة جدًّا...» صمت يطول بعد هذه الكلمات. لم تقو **حنان**، ابنة التسعة عشْر عامًا، على تقديم مزيد من الشرح. حدثتنا **حنان**، والخوف يملأها، عبر الهاتف من داخل حي **الوعر** في مدينة **حمص** السورية. همست في أذني عبر الهاتف «**بتعرفي شو مشتهية؟**»، ظننتها تريد السفر أو الخلاص أيًّا كان شكله، إلا أنها فاجأتني بشيء لم أكن أتوقعه: «**مشتهية آكل بطِّيخ**...»! يا إلهي هل صغُرت أحلامنا إلى هذه الدرجة؟

يقع حي **الوعر** غربي **حمص**، ويعرف رسميًّا باسم «**حمص الجديدة**»، وينقسم إلى قسمين: **الوعر الجديد**، ويتألف من ثماني جزر، تحوي أبراجًا سكنية، يتراوح عدد طوابقها ما بين 9 إلى 13 طابقًا، و**الوعر القديم**، وهو، كما يشي الاسم، المنطقة الأصلية في الحي. استقطب الحي الحديث والخدمات المتوفرة وسوق العمل الجديد العديد من أبناء **حمص** قبل اندلاع الأزمة السورية. لكن مع اشتعال الأوضاع في سورية نهاية العام 2011، شهد الحي حركة نزوح منه وإليه، فقد هجره بعض سكانه، فيما وفدت إليه عائلات أخرى هربًا من مناطق الاشتباكات في أحياء **حمص** القديمة بشكل خاص. يقطن الحي حاليًّا نحو خمسين ألف نسمة، نصفهم تقريبًا ليسوا من سكان الحي الأصليين. يسكن هؤلاء إما في مراكز إيواء تشرف عليها منظمات إنسانية، أو في منازل هجرها أصحابها.

تاريخ قصير لحي محاصر

من بداية إغلاق الحي، يعامل سكان الوعر، رجالًا ونساءً وطلابًا، معاملة استثنائية، فيسمح لهم بالدخول والخروج ضمن شروط معينة تتيح لهم إدخال كميات محدودة من المواد الغذائية. ويرصد الصحافي الميداني في **حمص حيدر رزوق**، أهم محطات الحي منذ أن ضربه الحصار. يقول **رزوق**: «**دخل الوعر على خط الأحياء التي تشهد توترًا أمنيًّا بعد أشهر من بداية الأحداث في سورية. اقتصر الأمر في البداية على المناوشات ولم يتطور إلى مرحلة الصدام المباشر أو الاشتباك المسلح**». لكن جاءت نهاية العام 2013، لتشهد تحولًا كبيرًا في حياة الحي. «**فقد تسببت حوادث الاعتداء المتكرر على المنشآت الحكومية والأمنية، والاعتداء على المدنيين بسحب جميع العناصر الأمنية من الحي**». بعد فترة التوتر هذه، جرى الوصول إلى هدنة «**لكن الوضع الأمني تأزم من جديد ما أدى لإغلاق الحي بالكامل**». وفي ظل هذا الحصار، يشرف مجلس محافظة **حمص** على إدخال المساعدات الإنسانية والغذائية إلى الحي.

تمكنَّا من الحديث مع **أم محمد**، 56 عامًا، التي تعيش مع أبناء خمسة وعائلاتهم في بيت واحد. بدا صوتها وقد أضناه التعب. هي ليست من سكان الحي، فقد نزحت إليه بعد انهيار الوضع الأمني في أحياء **حمص** الأخرى. «**لو بإمكاني أن أمحو هذه السنوات الخمس من عمري لمحوتهن. تعبت والله تعبت. أعاني من [مرض] السكري. ومنذ بضعة أيام سمعت أن الأدوية التي يعطونا إياها منتهية الصلاحية. وزني نقص عشرين كيلو في عدة أشهر. حلمي أطلع وأذهب لطبيب يفحصني، ويعطيني دواءً يريحني. تخيلي أن حلمي هو رؤية طبيب**»، هكذا تحدثت **أم محمد** بلكنة حمصية لا تخطئها أذن. تحدثت متذكرة أقسى اللحظات التي مرَّت عليها وعلى أحفادها الأحد عشر طيلة الخمس سنوات المنصرمة.

لا وقود ولا غاز للطبخ أو التدفئة في **الوعر** وحتى الخشب الذي يُحتطب من الغابة المجاورة لا يصل لجميع العائلات. أما الطعام فمعاناة أخرى لا تميز بين رضيع وبالغ. تقول **أم محمد**: «**في الصيف نشتري ملابس وأحذية مستعملة إن توفرت. نستخدمها ثم نحرقها لنتدفأ بها في الشتاء. وعندما توقفت المساعدات والخبز عن الوصول إلينا، كنت أطحن الحبوب، وأجهز منها خبزًا وغذاءً لنا. أتقاسم مع أقاربي الكميات القليلة جدًّا من الخضار التي يسمح لنا بإدخالها**». يأمل المدنيون في إنهاء هذا الوضع في أقرب وقت، لكن صوت السلاح يعلو على صراخ أطفالهم وجراح مرضاهم. يعاني الأهالي من غياب الرعاية الصحية. فقد توقفت ثلاثة مراكز صحية من أصل أربعة عن العمل نهائيًّا. لم يتبق سوى جمعية «**البرِّ الخيرية**» التي يشرف على إدارتها متطوعون من **الهلال الأحمر العربي السوري**، وحتى هذه الجمعية لا توفر جميع الخدمات والأدوية التي يحتاجها السكان، لأنه لا يُسمح بدخول إلا المواد الإسعافية الأولية والدوائية الملحَّة. تتراوح نسبة الدمار في **الوعر** بين خمسة إلى عشرة بالمائة فقط تتركز على أطراف الحي (في الجزيرة السابعة). **الوعر** هو الحي الوحيد الذي لم يشهد معارك داخلية، ومع ذلك فإن نسبة الدمار النفسي والصحي والغذائي الذي لحق بسكانه لا تختلف عن غيره من الأحياء الحمصية التي شهدت معارك واشتباكات أو حتى حوادث تفجير. وفي ظل هذا الحصار الممتد، لا عجب أن تصغر أحلام السكان إلى أكل البطيخ أو زيارة طبيب ■

أدى النزاع المسلح الممتد في سورية إلى أن يُضرب الحصار على أكثر من نصف مليون شخص في البلاد. من بين هؤلاء المحاصرين سكان حي الوعر في مدينة حمص، هنا لمحة سريعة عن الطريقة التي يعيش بها سكان الحي تحت وطأة نفاد الغذاء

سورية، 2015

REUTERS

لمشاهدة فيديو توضيحي عن حياة نحو 5 ملايين سوري في مناطق محاصرة، استخدم تطبيق ماسح الباركود هنا (Barcode Scanner)

ماهر المونس*

أصبحت قذائف الهاون تَفْصِيلًا يوميًّا من تفاصيل العاصمة دمشق، وجزءًا رئيسًا من حياة سكانها. فالقذائف وأصواتها ترافق الناس في كل مكان. والحال ليست بالمختلفة في ريف دمشق أو حلب أو حمص أو غيرها من مدن سورية. إنها مأساة إطلاق أسلحة متفجرة ذات آثار واسعة النطاق في مناطق مأهولة بالسكان.

يوميات

قذائف تدك مدن سورية

AFP

سورية، 2017

* صحافي سوري

مع دخول النزاع في سورية عامه السادس، وفي ظل غياب أي نهاية له في الأفق، يمثل هذا النزاع أكبر الأزمات الإنسانية وأكثرها تعقيدًا في العالم بأسره. فقد وقعت البلاد في براثن عنف وحشي بلا هوادة، وأصبح الملايين في حاجة ملحة للمساعدة العاجلة.

- **8 ملايين شخص نازح داخل سورية.**
- **4,5 مليون شخص يعيشون في مناطق محاصرة ومناطق يصعب الوصول إليها.**
- **1,5 مليون شخص مصاب.**
- **250,000 شخص قتلوا.**

REUTERS

سورية، 2016

لكل قذيفة تسقط على المدينة قصة، بعضها كتب على ورق، والكثير منها بقي حبيسًا في صدور الضحايا والجرحى

بدا القلق واضحًا على **دانييل**** (48 عامًا)، الصحافي الفرنسي القادم من باريس عن طريق **بيروت**، فور مشاهدته الحواجز العسكرية على بعد أمتار من المنطقة الحدودية. لمحت عيناه أشياء جديدة عن العاصمة **دمشق**، التي سبق أن زارها لتغطية فعاليات «**دمشق عاصمة الثقافة العربية**» في العام 2008. اختلفت الحال كثيرًا الآن. فسحب الدخان تَمْلَأُ سماء **دمشق**، فيما يحلق الطيران الحربي فوق الغيوم. وفي الوقت ذاته، فالازدحام شديد في شارع **الدويلعة** باتجاه مدينة **جرمانا** التي قرَّر الصحافي الفرنسي زيارتها بعد أن سمع أنها كانت واحدة من أكثر المناطق التي سقطت عليها قذائف الهاون. لا يجد **دانييل** صعوبة أبدًا في تحديد أماكن سقوط هذه القذائف. فقد تركت كل قذيفة بصمة، أثرًا في جدران المنازل أو على الأرض. فيما تركت قذائف المدفعية أثرًا أكبر في الأسقف والأبنية الآيلة للسقوط، بفعل معركة شرسة دارت في الجوار على مشارف **الدخانية**. في الأطراف القريبة من خطوط التماس، تضع جميع المنازل «القماش المشمع» بدل الزجاج في أماكن النوافذ، فقد تكسَّر الزجاج مرارًا جراء قوة ضغط القذائف. بعض العائلات استبدلت بالأبواب أغطية للسبب عينه. يقول أحد أصحاب المنازل: «**الحرب تدخل بيوتنا دون أن تدق على الباب. القذيفة تسقط، وتخلع معها الأبواب والشبابيك. لم يعد معنا أي أموال لتركيب أبواب وشبابيك جديدة كل مرة**».

تترهَّل كل منطقة تدخلها الحرب، وتهرم وتبدو على جدرانها آثار الزمن. فبلدات خطوط التماس تختلف تمامًا عن مناطق وسط **دمشق**، والفوَّهات التي يخلِّفها الرصاص المنطلق من الرشاشات تدخل أشعة شمس في الصباح، وبردًا قَارِسًا بعد مغيب النور، فيما تشترك المدينة والريف بسماع دوي طلقات الأسلحة. وتبقى المناطق الريفية من يدفع ضريبة المعارك التي تدور في أرجاء محيط المدينة. تحوَّلت منطقة **الدويلعة** من بلدة ناشئة، ومدينة صغيرة، إلى ملجأ كبير لسكان **الغوطة** الشرقية الهاربين من هول المعارك، وحرارة الحديد والنار. ورغم انهيار أسقف الكثير من المنازل، فإن جدرانًا أربعة – بدون نوافذ – كافية لتغري أي نازح باللجوء إليها، بسبب ارتفاع مخيف في أسعار الإيجارات بقلب المدينة الآمن نسبيًّا.

يوميات قذائف المدن

في منطقة **المزة**، يصوِّر **أنس الأسود (24 عامًا)** مكان سقوط قذيفة صاروخية انفجرت على سطح أحد الأبنية، ويكتب وصفًا مناسبًا، ثم يرفع الصورة على صفحة بموقع التواصل الاجتماعي **فيسبوك** سمَّاها «**يوميات قذيفة هاون في دمشق**»***. أنشأ **أنس** مع أخيه التوأم **نور** هذه الصفحة قبل نحو عامين ونصف، وقد ذاع صيتها الآن بأكثر من مليوني ونصف المليون نقرة إعجاب. يقول أنس: «**قذائف الهاون تَفْصِيل يومي من تفاصيل العاصمة، وجزء رئيس من حياتنا، فالقذائف وأصواتها ترافقنا في كل مكان، ولا يمكننا تجاهلها بعد اليوم، لذلك قرَّرنا أن نخصص مكانًا لنكتب فيه مذكرات الحرب من خلال قذائف الهاون**».

تهتمُّ هذه الصفحة بأخبار القذائف وأماكن سقوطها، والأضرار الناجمة عنها، وتحاول أن توثِّق هذه المعلومات بالصوت والصورة. يضيف **أنس**: «**نحاول توثيق القذائف باليوم والتاريخ، فالحرب في سورية طويلة، وتفاصيلها كثيرة، لذلك قد تضيع هذه التفاصيل في زحمة القذائف والموت اليومي**».

أما في الأيام التي لا تسقطُ فيها القذائف، فتسعى الصفحة لنشر أخبار خدمية أو محلية مع مراعاة الابتعاد عن السياسة. يشرح أنس: «**القذيفة التي تسقط لا تميز بين مؤيد أو معارض، أو كبير أو صغير، لذلك هي تجمع السوريين، والأخبار الخدمية كذلك، أما السياسة فهي تفرقنا، ولذلك نسعى دائمًا للابتعاد عنها**».

يشرف على الصفحة صحافيون ومتطوعون منتشرون في كل أحياء **دمشق**، بينما يؤكد الأخوان **أسود**، أن هناك دمشقيين لا يغادرون منازلهم كل صباح، قبل أن يفتحوا الصفحة ويتفقدوا أماكن سقوط قذائف الهاون، كي يحددوا وجهتهم، والطريق المناسب لعملهم. ربما تؤخر القذائف حياتهم، وربما تُوقِفها للأبد. شاركت صفحة «**يوميات قذيفة هاون في دمشق**» في معظم الأنشطة الأهلية والمدنية التي تدعم عجلة الحياة في **دمشق**. وحاربت الموت بنقل مباشر لحفلات الموسيقى، ومعارض الرسم والنحت والفن التشكيلي. وثّقت الصفحة سقوط أكثر من ستة آلاف قذيفة على العاصمة ومحيطها، ومع كل قذيفة قصة، بعضها كتب على ورق، والكثير منها بقي حبيسًا في صدور الضحايا والجرحى. فكل شظية سقطت خلّفت أثرًا، على الأرض، أو في المتاجر، أو على الأجساد أو الأرواح.

الحربُ وأخواتها.. برزخ دمشق

في مدينة **دمشق** وريفها، هناكَ حالةٌ غريبة من التناقض، بين الحياة والحرب.

كثيرٌ من الأصدقاء المقيمين في الخارج يسألون عن وضع العاصمة. ومن الصعب أن تلخِّص الحال بسطر أو سطرين. لكن إجمالًا يمكن تقسيم الوضع هكذا: بداية لا تستطيع إجمال كل مدينة **دمشق**، وكل ريفها بحالة واحدة. فالوضع في المدينة يختلف كُليًا باختلاف المكان والزمان، بمعنى، الهدوء في حي **الميدان**، لا يعني أبدًا هدوءًا في حي **القدم** القريب منه. والاضطرابات في صباحات حي **القدم**، لا تعني أبدًا استمرارها حتى المساء. ومع هذه المعادلات فالوضع مُعقَّد جدًّا في المدينة المقسَّمة إلى قطاعات.

نقطة ثانية، الهدوء وعدم الاستقرار والاشتباكات والانفجارات والرعب، وغيرها من الكلمات هي مصطلحات نسبية. سقوط قذيفة هاون في **جرمانا**، لا يعني أبدًا أن المدينة غير هادئة، الهاون في **جرمانا** أصبح جزءًا من روتين المدينة العادي. لكن سقوط صاروخ محلي الصنع في **مشروع دمّر**، هو حالة غير عادية، ونستطيع حينها القول إن **مشروع دمّر** لم يكن هادئًا في هذا اليوم. وتبقى هذه التوصيفات نسبيَّة، فالمضطرب عندي، هو هادئ عند غيري، والعكس صحيح. أيضًا، قد لا يفصلك عن مكان الاشتباك سوى مئات قليلة من الأمتار، الريف الدمشقي متداخل ومتصل مع المدينة. **جوبر** شرقي العاصمة لا تبعد سوى 1,5 كم عن ساحة **العباسيين**، وكذلك الحال بالنسبة **لداريا** وساحة **الأمويين**، و**المخيَّم** و**الميدان**، و**المليحة** و**باب شرقي** وغيرها. لذا، فسكان المدينة يسمعون صوت انطلاق القذيفة وصوت سقوطها وانفجارها، وإذا حدث تفجير في **المرجة**، سمعه معظم سكان المدينة. وعليه لا يمكن الاستدلال أبدًا على هدوء **دمشق** بصورة عفوية لشوارع **سوق الحمراء**. وبطبيعة الحال، لا يمكن تصوير اضطراب الريف، بصورة لدمار منزل في **داريا**. الوضع مناطقي، وزماني، ومكاني، ومعقَّد. ليلُ **المزَّة** يختلف عن نهارها، ونهارها يختلف عن نهار **برزة**، و**برزة** ليست **حرستا**، و**حرستا** لا تتشابه مع **جوبر**، والوضع في **جوبر** مغاير للوضع في **داريا**.

هي نصف مدينة، ونصف حرب، ونصف حياة كما يقول جبران خليل جبران..

في دمشق الآن برزخ عجيب، لا هي حيَّة، ولا هي ميتة..

مدينة تتنهَّد، بصعوبة تتنفُّس المشتاق..

الموت الذي لا يُرى في حلب

يتلفَّت دانييل يمينًا ويسارًا وهو يسير بجواري في شوارع مدينة **حلب**، ويضع يديه على أذنيه وعينيه بين الحين والآخر. يقول إنه يسمعُ أصواتًا غريبة، لم أتمكن من التقاطها مع قربي الشديد منه. شيء ما في إدراكي السمعي والبصري قد تغيَّر بعد ست سنوات من حرب طاحنة في سورية. لستُ وحيدًا، فجميع سكان منطقة **البولمان** في **حلب** يسيرون دون أن تكترث عيونهم بسحب الدخان المتصاعدة من الجهة الجنوبية للمدينة، أو دون أن تهتمَّ آذانهم لأصوات أقل ما يقال عنها إنها «**أصوات كل ما يمكن أن يسمع في الحرب**». يلتقط الصحافي الفرنسي الكثير من المشاهد. يصور بناءً مليئًا بثقوب الشظايا والقذائف، وآخر من دون سقف، وثالثًا من دون شرفة. يصعب أن تجد منزلًا لم يمسه الدمار في حلب. يلتفت الصحافي فجأة كلما سمع صوت مدفعية أو قذيفة، ثم يراقب بغرابة كيف يسير الناس من حوله، وكأنما هو في جزء آخر من الزمان أو المكان. يقول دانييل: «شَعُرتُ للحظة أنني أشاهد فيلمًا، وأن كل هؤلاء داخل الشاشة ولستُ معهم. شَعُرتُ بكم هائل من الانفصام عن الذين يعيشون فيه. هم لا يكترثون بأن صوت قذيفة قد دوى قبل ثوان، يتابعون سيرهم وكأن شيئًا لم يكن». يسأل دانييل: «**هل هناك خطر**»؟ بمعدَّل مرة كل ثلاث دقائق. يردد السؤال حين يشاهد سيارة إسعاف، أو عندما يمر على حاجز تفتيش، أو عندما يلحظ رجلًا يحمل بندقية، أو عندما يلمح امرأة تركض، أو عندما يسمع دوي طائرة حربية تحلِّق فوق رأسه، أو عندما يرمق سحابة دخان تغطِّي أفق نظره، وحين يرتدي الخوذة والدرع الواقية من الرصاص وسط مدينة حلب. يكرر السؤال، فيما يخرج الحلبيون عزَّلًا في شوارع مدينتهم المصنَّفة المدينة «**الأخطر في العالم**»، وفق منظمات دولية وإقليمية. يصل دانييل أخيرًا إلى شارع **بارون**، حيث ينوي زيارة فندق قديم اعتاد كل الصحافيين الفرنسيين أن يزوروه. يتجه ببطء نحو باب الفندق، قبل أن يركض مسرعًا إلى أحد الأبنية بعدما رأى الجميع يركض بالاتجاه المعاكس. «**هل هناك خطر**»؟ كرَّر سؤاله مجددًا؟ «**لا... لا يوجد شيء... فقط قناص**»، هكذا أجيب بهدوء. ننتظر قليلًا في بهو المبنى إلى أن يعود الشارع لحركته الروتينية بعد أقل من خمس دقائق. لقد توقَّف أزيز رصاصات القنص من الشارع المجاور.

زجاج السيارة بخير

يخرجُ أبو علاء من منزله الكائن في **حي الروضة** شرقي **حلب**، العاصمة الاقتصادية لسورية قبل اندلاع الأزمة. يتفقَّد سيارته الصفراء العتيقة قبيل انطلاقه لعمله اليومي سائق سيارة أجرة. «**زجاج السيارة بخير**». جملة قالها لي مع ابتسامة عريضة بعد أن عاين النوافذ الأربع للسيارة والزجاجين الخلفي والأمامي، قبل أن يخبرني «**أصابت الشظايا سيارتي ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت الشظايا تكسر زجاج السيارة، لقد مللت إصلاح آثار القذائف**».

تشهد مدينة **حلب** بشكل شبه يومي تساقطًا لمختلف أنواع القذائف في ظل النزاع الدائر فيها. بعض القذائف تسقط في الحي الذي يقطنه **أبو علاء**، وهو رجل في الخمسينيات من العمر، يتميز بصوت عالٍ. يقول: «**لا يسقط عندنا كثير من القذائف، خَمس أو ست في كل الأسبوع. أكثر القذائف تسقط حاليًّا على حي الحمدانية**».

أصعد مع **أبو علاء** الذي يحب الحديث للصحافيين. يصحبني باتجاه فندق **بولمان الشهباء**، حيث يقيم الصحافي الفرنسي الذي يتوجَّب عليَّ إعادته إلى **دمشق** ومنها إلى **بيروت** كي يعود إلى بلاده «آمنًا». يحاول **أبو علاء** أن يجنب سيارته الحفر الكبيرة التي خلَّفتها القذائف المنفجرة على الطريق بجانب دوار **الموغامبو**: «**يصلحون الطريق ثم تعود الحفر مرة أخرى. لا يوجد أمل، هناك قذائف كل يوم**». يدير **أبو علاء** مذياع السيارة بصوت عالٍ، بعد أن سمع صوت إطلاق نار متواصلًا، يبدو أنه ليس ببعيد «**لا تخف. هذا الصوت لتشييع الشهداء أو لإسعاف الجرحى**»، يقولها بهدوء ويكمل تدخين سيجارته وطريقه باتجاه منطقة الجامعة التي يوجد فيها الفندق. قبل أن ينزلني من سيارة الأجرة، يسألني: «**حضرتك لست من حلب، صحيح؟ لا تخف. الوضع عندنا مثل الوضع عندكم بالشام. والأعمار بيد الله**» ■

★★ دانييل اسم مستعار

★★★ موقع صفحة «يوميات قذيفة هاون في دمشق»: https://www.facebook.com/YomyatKzefeh/

ومضت سنوات العز والتيه في الخرطوم:

عاصمة القُطر على ضَفَّاتِ النيل

عند واحد من منحنيات النيل، وعند التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض، نهضت الخرطوم كحيز حضري فريد في وسط وجنوب القارة الأفريقية. ازدانت العاصمة بطرق ومؤسسات ومبانٍ حديثة. إلا أن الرونق الحضري القديم أصيب بالذبول بفعل جملة من العوامل، منها النزاعات العسكرية الطويلة

يروي الشاعر السوداني الكبير **محمد المكي إبراهيم** في قصيدته المعروفة «**قطار الغرب**»** رحلته الأولى من مدينته **الأُبَيِّض [عاصمة إقليم كردفان]** إلى العاصمة **الخرطوم**، مطلع الستينيات، وانبهاره صبيًّا بها:

هذي ليست إحدى مدن السودان
من أين لها هذي الألوان؟
من أين لها هذا الطول التياه؟
لا شك قطار الغرب الشائخ تاه
وسألنا قبل لنا الخرطوم
هذي عاصمة القطر على ضفات النيل
تقوم
عربات
أضواء
وعمارات
وحياة الناس سباق تحت السوط
هذا يبدو كحياة الناس
خير من نوم في الأرياف يحاكي الموت

لم تكن تلك حالة انبهار فردية لصبي قادم من أقاليم الغرب، لأنها يمكن أن تكون حالة كل القادمين للمرة الأولى، من كل أقاليم السودان المختلفة، شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، وهم يدخلون على مدينة حديثة، نظيفة وجميلة وأنيقة، تشبه أحلامهم وأمانيهم. بعد خمسين عامًا من تلك الرؤية، تبدو القصيدة بلا معنى لكثير من صبيان الريف الذين أتوا **للخرطوم**، ما رأوا شيئًا من جمالها وأناقتها ورقيها، فلهم خرطومهم الأخرى التي تحبط كل أحلامهم وأمانيهم، وتعاملهم بقسوة ووحشية لم تكن ضمن تصوراتهم.

تاريخ مدينة

تأسست مدينة **الخرطوم** على يد الجيش التركي المصري في عهد **محمد على باشا**، عندما أرسل جيشًا بقيادة ابنه **إسماعيل باشا** لضم السودان في العام 1821. اتخذ الأتراك المدينة، في البداية، معسكرًا لجيوشهم، ثم تحولت إلى عاصمة لهم في عهد **عثمان جركس باشا** في العام 1824، وذلك عقب تعيينه حاكمًا عامًّا على السودان. لكن يعود تاريخ الخرطوم كمستوطنة بشرية إلى عصور سحيقة، فقد أثبتت حفريات أن الإنسان استوطن في موقع الخرطوم الحالي منذ 400 عام قبل الميلاد. وعُثر على أدوات تعود إلى العصر الحجري في منطقة **خور أبو عنجة** في مدينة **أم درمان** الحالية القريبة من الخرطوم. واختلف المؤرخون على مرجعية اسم الخرطوم، فهناك من أرجعها إلى شكل قطعة الأرض التي تقع عليها المدينة والتي يشقها فرعا النيل ويلتقيان فيها مع بعضهما في شكل انحنائي يرسمان بينهما قطعة أرض أشبه بخرطوم الفيل وهو الرأي الراجح. بينما نسبها الرحالة الأسكتلندي **جيمس جرانت** (James Grant) الذي رافق الرحالة **جون سبيك** (John Speke) في رحلته الاستكشافية لمنابع النيل إلى زهرة القرطم التي كانت تزرع بكثافة في المنطقة لتصديرها إلى مصر لاستخراج الزيت منها للإنارة. وهناك أيضًا تفسيرات أخرى لأصل الاسم، لا سند لها، مثل «خور التوم» نسبة إلى شخص يدعى التوم. بينما أرجعها البعض للغة النوبية القديمة، أو لغة قبائل **الشلك** التي قيل إنها كانت تقطن في المنطقة***.

وبعد انتصار الثورة المهدية وخروج الأتراك والإنجليز من السودان، اختار **محمد أحمد المهدي**، زعيم الثورة المهدية، مدينة **أم درمان**، على الضفة المقابلة للنهر عاصمة له. لكن بعد سقوط دولة **المهدية** عام 1898، أعاد الإنجليز **الخرطوم** عاصمةً وطنية للبلاد. وأعادوا إعمارها على النسق المعماري الإنجليزي الذي لا يزال ماثلًا للعيان في أبنية بجامعة الخرطوم وبعض المرافق الحكومية المطلة على النيل، وفي بعض الجسور القديمة المقامة على نهر النيل التي تربطها بما يحيط

* صحافي وكاتب سوداني

محطة ترام في مدينة الخرطوم. النصف الأول من القرن العشرين.

تندب حظها

فيصل محمد صالح*

بها من مناطق حضرية. جغرافيًّا تتوسط مدينة **الخرطوم** النيلين الأزرق والأبيض، وتنتهي شمالًا عند نقطة التقاء النهرين في منطقة **المقرن** ليشكلا نهر النيل، فيما تمتد على الضفة الشرقية وحتى الشمال مدينة **الخرطوم بحري**، وتمتد للشمال مدينة أم **درمان** وتشكل المدن الثلاث، التي تربطها عدة جسور، «**الخرطوم الكبرى**» التي تعرف أيضًا باسم «**العاصمة المثلثة**».

سنوات العز والتيه

عاشت مدينة **الخرطوم** خلال سنوات الخمسينيات وحتى السبعينيات مجدها كواحدة من أجمل وأرقى العواصم الأفريقية، تزدحم أسواقها بالبضائع القادمة من كل أنحاء العالم، وتهبط فيها الطائرات المتجهة لمعظم العواصم العربية والأفريقية. وتنشط العاصمة ليلًا حيث يرتاد الناس الكازينوهات والمطاعم الراقية ودور السينما وأماكن الترفيه التي كانت تحمل أسماءً أجنبية: **سانت جيمس**، **غوردون ميوزيك هول**، **أفريكانا**، **جراند أوتيل**، التي تزورها أشهر الفرق الموسيقية العربية والأجنبية، وتقام فيها مسابقات الرقص وملكات الجمال. اكتظت المدينة بجاليات أجنبية «تسودنت»، من الشوام والهنود واليونانيين والأقباط واليهود. منذ أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات بدأت التحولات السياسية والديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية تغير وجه **الخرطوم**. اتجهت السياسات الحكومية نحو إجراءات وقوانين أكثر أصولية ومحافظة، وساهمت حركات النزوح الجماعي من الأرياف في تغيير التركيبة الاجتماعية والاقتصادية، ثم زاد الضغط السكاني على الخدمات الشحيحة فتدهورت خدمات المياه والكهرباء وحركة المواصلات بشكل سريع.

حركة النزوح

عرفت الخرطوم الهجرة إليها من الريف منذ فترات طويلة، لكنها كانت دائمًا هجرة ترتبط بأثرياء أو متعلمين رفعتهم حظوظهم إلى طبقة اجتماعية أعلى، فاختاروا الخرطوم سكنًا يناسب طبقتهم الجديدة. لكن حركة النزوح الأخيرة، التي غيرت وجه العاصمة، كانت لظروف مختلفة ومن طبقات مختلفة. احتكرت المدينة التعليم الجامعي، والمستشفيات الكبيرة، والخدمات الضرورية للمواطن التي لا يجدها سكان الأقاليم في مدنهم وقراهم، لذا كان النزوح والإقامة بها فرض عين على كل صاحب استطاعة.

AFP

التنظيم العمراني للخرطوم كما يظهر في صورة من الجو عام 1961

في سني الخمسينيات وحتى السبعينيات عاشت الخرطوم مجدها كواحدة من أجمل وأرقى العواصم الأفريقية

كانت أولى موجات النزوح الجماعي الكبيرة للخرطوم في السبعينيات، بفعل التصحر والجفاف الذي ضرب مناطق مختلفة من العالم، وتأثرت بها مناطق في غرب السودان. فتحرك أهلها لينزحوا عبر **كردفان** إلى الشرق ليجاوروا النيل، ويعبروا إلى **الخرطوم**. لم تكن هناك معسكرات نازحين بالمعنى المعروف دوليًّا، وإنما مساكن من الخيام والمواد الأولية، يسكن فيها البشر وحيواناتهم في ظروف قاسية. وانتشر القادمون من الريف ليعملوا في أي وظيفة يجدونها، ويسكنوا في أي مكان طرفي يقبل بهم. ثم اندلعت الحرب الأهلية السودانية الثانية في العام 1983، وعندما اشتد أوارها، هجر عشرات الآلاف من أبناء الجنوب وجبال النوبة مساكنهم ومناطقهم ورحلوا شمالًا. واستقر أكثرهم في مناطق في داخل وحول العاصمة الخرطوم. ثم اندلعت أزمة دارفور [في العام 2003] لتزيد مشاكل البلاد تعقيدًا، وتلقي على العاصمة الخرطوم عبء استضافة مجموعات نازحة جديدة شردها النزاع المسلح من ديارها، واضطرتها ظروف الفقر والحاجة لمحاولة البحث عن الرزق والأمان في أطراف وطرق الخرطوم. وظلت العاصمة تعاني من هذه الموجة البشرية التي استقبلتها طيلة السنوات الماضية، فزاد عدد السكان زيادةً واضحةً، لم يستوعبها تخطيط المدينة ولا مراكز خدماتها. وبالرغم من غياب إحصائيات دقيقة، فإن التقديرات المبنية على آخر إحصاء سكاني تقول إن عدد سكان ولاية الخرطوم يبلغ نحو سبعة ملايين نسمة. وتقول دراسة أكاديمية أعدها باحثان عن تأثير النزوح على مدينة الخرطوم «**إن تدفق النازحين من الولايات المختلفة أدى إلى تعطيل مستوى التعليم وتفشي الأمية وانتشار المهن الهامشية بولاية الخرطوم، هذا بدوره ساهم في انخفاض الدخل وتزايد معدلات البطالة، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع معدلات الجريمة والنهب وزيادة صرف الدولة على الأمن والشرطة. ولم تكن الخرطوم مهيأة أصلاً لإقامتهم فيها، ما خلق بيئة غير صالحة للحياة**»****.

استقبال اللاجئين

يستضيف السودان أعدادًا كبيرة من المهاجرين واللاجئين من دول الجوار، من إثيوبيا وإريتريا وجنوب السودان والصومال، بالإضافة لهجرات متوطنة قدمت من دول غرب أفريقيا في عقود سابقة. والسودان اليوم بحسب تقارير **المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين** يُعد واحدًا من أكبر مستودعات اللاجئين، فقد كان يستضيف على أراضيه، لوقت ليس ببعيد، نحو مليون لاجئ، وغيرهم ممن وفدوا للبلاد بطرق شتى. ولا يقيم بالمعسكرات الرسمية، التي تستضيف اللاجئين، إلا نحو 20٪ من اللاجئين في السودان، فيما تسلل الباقون للمدن الكبيرة، ونالت الخرطوم النصيب الأكبر. كما يستضيف السودان ثالث أكبر عدد من لاجئي دولة جنوب السودان، وهم أكثر من ربع مليون نسمة. ويشكل السوريون آخر موجة وفدت على البلاد من اللاجئين، إذ يتيح السودان للاجئين السوريين الدخول والإقامة دون أي تعقيدات. ويقدر عدد السوريين بنحو مائة ألف لاجئ، يتمتعون بحق الإقامة والتعليم والعلاج المجاني.

صناعة الهامش في خرطوم الحضر

هكذا اجتمع اللاجئون والنازحون في الخرطوم. وفي رحلة هؤلاء لتأمين لقمة العيش، امتهن أكثرهم أنواعًا مختلفة من المهن الهامشية والأعمال الشاقة والأنشطة الصغيرة. منهم الباعة المتجولون، و«بائعات الشاى»، و«منظفو السيارات». يعاني هؤلاء من ظروف العمل القاسية، فضلًا على استهدافهم من السلطات البلدية تحت مبررات الارتقاء بالمظهر الحضاري أو إعادة تنظيم

لوحة للفنان السوداني حسين جمعان

وتخطيط الأسواق والمواقف العامة. معظم بائعات الشاي والأطعمة في طرقات المدينة وشوارعها، ومعظم الأطفال الذين يكثرون عند الإشارات المرورية المزدحمة يطلبون المساعدة، هم من النازحين. تحمل صفحات الصحف السودانية بشكل متراتب تحقيقات صحفية وتقارير عن أوضاع المناطق الطرفية من الخرطوم، التي تسمى بالأحياء العشوائية، وهي تحديدًا المناطق التي يقطنها فقراء المدينة، وجلهم من النازحين واللاجئين من دول الجوار. مشكلة أخرى يواجهها النازحون إلى حضر الخرطوم هي أن معظم اللاجئين، هم في الأصل مزارعون أو رعاة، ولا يعرفون مهنة غيرها، وهم بلا تعليم أو مهارات، لهذا تكاد تكون فرصهم، في إيجاد مورد رزق في المدينة الكبيرة، معدومة. وهم يشكلون أيضًا عبئًا ثقيلًا وضغطًا على الهياكل الأساسية الهشة خاصة في قطاع الخدمات، بالإضافة إلى أن وجود أعداد كبيرة إضافية على السكان تترتب عليه آثار سلبية تؤثر في مجال توفير المواد الغذائية والأساسية، ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى ندرة السلع والمنتجات وارتفاع الأسعار على المواطنين السودانيين. «تريفت» مدينة الخرطوم وترهلت في امتدادات عشوائية غير مخططة، وساءت حالتها وتدهورت خدماتها، حتى بدأ البعض يدعو لإنشاء عاصمة جديدة، يأسًا من إمكانية إصلاح الأوضاع. لم تعد الخرطوم المدينة التي كانت، ودفعت ثمنًا باهظًا لمركزية الدولة التي أعطتها كل شيء، وحرمت الريف من كل شيء، فحمل متاعه وقدم إليها بحجة مشروعة، إن لم نصبح مثل الخرطوم، فلتصبح هي مثلنا... وقد كان ■

لاجئون

للسودان مكانته شبه الثابتة في قائمة الدول العشر الأولى المستضيفة للاجئين. فحسب التقرير السنوي الأخير لـ المركز الدولي لرصد النزوح الداخلي ومقره في جنيف، فقد بلغ عدد النازحين داخليًا في السودان نحو ثلاثة ملايين شخص، وبلغ عدد النازحين الجدد العام الماضي فقط نحو 150 ألف نازح.

الأميرة النازحة

سبق للصحافية زينب صالح أن كتبت تقريرًا في تموز/ يوليو الماضي في صحيفة «الجارديان»، عرضت فيه قصة سيدة من دارفور، اتضح أنها إحدى حفيدات السلطان علي دينار (1865–1916)، وهو شخصية بارزة في التاريخ السوداني وآخر حكام سلطنة دارفور المستقلة. نزحت حفيدة السلطان دينار، وتدعى سعاد فضل، إلى الخرطوم بسبب النزاع الذي اندلع في مسقط رأسها دارفور، وانتهى بها المطاف لتبيع الشاي في منطقة أمبدة بأم درمان. حالة السيدة سعاد فضل، التي تنتمي لأسرة ذات اسم وصيت في السودان، تصلح مقياسًا لحالة مئات الآلاف من النازحين الذين ألقت بهم الظروف في المدينة.

اندلعت أزمة دارفور [في العام 2003] لتزيد مشاكل البلاد تعقيدًا، وتلقي على العاصمة الخرطوم عبء استضافة مجموعات نازحة جديدة شردها النزاع المسلح من ديارها

مشهد عام لأحد شوارع الخرطوم، أغسطس 2005

AFP

★★ محمد المكي إبراهيم، الأعمال الشعرية الكاملة، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، ص49

★★★ لمزيد من التفصيل عن أصل مدينة الخرطوم، انظر: بكري الصائغ، الذكرى 193 على تأسيس مدينة الخرطوم، 4 سبتمبر 2014، موقع صحيفة الراكوبة: http://www.alrakoba.net/news-action-show-id-144163.htm

★★★★ عبد العظيم سليمان إبراهيم المهل، وحرم محمد بدوي محمد، الآثار الاقتصادية للنزوح في السودان: دراسة حالة ولاية الخرطوم (1998–2007)، مجلة العلوم الاقتصادية، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، (13–1)، 2014، الرابط: http://www.sustech.edu/staff_publications/20150326070250401.pdf

سحر مندور*

الصورة المؤلمة محاكمةٌ بلا ضوابط:

حضور المدن

لدينا صورٌ محفوظةٌ في أرشيف الصحف والتلفزيونات، تجسِّد الحرب الأهلية في لبنان (1975–1990) أو تطلُّ من خلف متاريسها، لكنها نادرًا ما تُستدعى لتحكي عن الحرب. في المقابل، تُستدعى تلك التي يملأها «زعيمٌ»، بحضوره أو بأفعاله، كثيرًا ما تُستدعى من زمن الحرب لغرضٍ في السلام، تحتفي بهذا أو تدين ذاك.

كثيرًا ما كُتب عنا أننا صرنا أرقامًا في حرب لبنان. واليوم يعاد القول ذاته عن ضحايا العراق وسورية واليمن وليبيا

REUTERS

سورية، 2015

للصورة سطوتها الخاصة زمن حرب لبنان. اللقطة في الصفحة المقابلة لسيدة فلسطينية تغادر الدمار الذي حل بمخيم شاتيلا للاجئين الفلسطينيين جنوب بيروت، 1985

* صحافية لبنانية

في الصور، كثيرًا ما يظهر شارعٌ أو مجزرةٌ أو حالٌ عسكرية، يصفع وعينا، نحن أحياء اليوم الذين عايشنا حرب الأمس. ومع ذلك، يمكن ليدنا أن تمسك بهذه الصورة أو تلك، وتروي عنها قصَّةً أخرى. بدلًا من أن يكون المتراس الذي تظهره الصورة هو محور أهميتها، يمكنني أن أوقظ في الصورة المبنى المهشَّم خلف المتراس، وأحكي قصَّة قتلاه. يمكن لغيري أن يبني عليها استعادةً للتنقُّل بين «بيوت السِّلم» تبعًا لصوت القذائف، وقد تعلَّمنا أن صوتها يعرِّف لنا مصدرها وهدفها. يمكنني أن أروي عيشنا لهذه الحرب، الشوارع المحفَّرة الملأى دومًا بشظايا الرصاص والقنابل، وأحيانًا بشظايا البشر. الشظايا تتراكم في الحفر، وأكوام النفايات تستقر لـ 15 عامًا في الزوايا. يمكن أن نبني على الصورة قصَّة حبٍّ **مُزقت**، قصَّة عائلة نُحرت، قصَّة مهنةٍ هُمشت، وقصصًا كثيرةً عن كيفيَّات الاستمرار بعد التمزيق، النحر، والتهشيم. ولذلك، لم تُترك الصورة في حالها. سعت الحرب لاستعمارها آنذاك، وهي اليوم تقاوم الجهود الحربيَّة لإسكاتها بعدما كثرت الصور وصارت متاحة لكلِّ يد.

في الصورة معركةٌ تدور، وحولها أيضًا تدور معركة.

الحرب القديمة

كموتى وجرحى وخائفين، كثيرًا ما كُتب عنا أننا صرنا أرقامًا في حرب لبنان. واليوم يُعاد القول ذاته عن ضحايا العراق وسورية واليمن وليبيا. وكنَّا فعلًا قد صرنا أرقامًا في نشرات الأخبار، لكنَّ صور كلِّ ضحيَّة منا لا تزال معلَّقةً على جدار بيتٍ، وفي أكثر من قلبٍ محروق. لمَّا كان الراديو يقول أسماء الذين قضى عليهم تفجيرٌ أو استهلكت أرواحهم معركةٌ، كنا نستمع ببالغ القلق، خائفين من سماع اسم نعرفه، مقبوضين من طول اللائحة. أرقامٌ قد لا يحفظ أسماءها السياق العسكريُّ – السياسيُّ، لكنهم/ن حروقٌ في قلوبٍ كثيرة عرفتهم، ورعبٌ متكوِّر داخل كلِّ من سمع نشرةً يوميَّةً بأسماء القتلى.

الصور الصحافيَّة همَّشتنا خلال الحرب، كونها تخصَّصت بالشأن الأمنيِّ – السياسيِّ واختزلت فيه وجودنا. الأمن هو أول اهتمامات الناس في الحرب طبعًا، إذ به يرتبط كلُّ شيء، والسياسة تديره. الموارد الصحافيَّة كانت قليلةً في زمن حرب لبنان. التصوير كان عملية مركَّبة، وللأفلام كلفتها، للتظهير شروطه. وللنشر ضوابط المساحة الورقية في زمن الحصارات. أما الصورة المتحرِّكة فحدِّث ولا حرج عن صعوباتها وأكلافها. أسبابٌ كثيرة جعلت للصورة آنذاك احتكاراتٍ في المواضيع كما في المصادر. ومع ذلك، يمكننا اليوم أن نوقظ خبرة الحرب الكامنة فيها، نفكِّكها، أو نرميها في وجه كلِّ من تأخذه حماسة الاستقطاب إلى استدعائها. ونتلمَّس عبرها معنى أن تحلَّ الحرب في مجتمع، وهي تحلُّ كثيرًا اليوم. تكفي صورة شارعٍ محروق تمضي فيه حياة لنتذكَّر

في صور دمارها

AFP

كانت الصورة دليل الوجود، ثم صارت مصدر شكٍّ، وكان المصوِّرون مسجِّلي الواقع لكنهم صاروا شركاء في جرم اجتزاء الحقائق

صفوف الانتظار من أجل الخبز والوقود والماء، انعدام الكهرباء التامِّ، انعدام الثقة بأن من يخرج سيعود، تفكُّك الوجه المديني للمدينة واستحالتها دوائر منكوبة بدرجات متفاوتة، متقطِّعة ومتجاورة. يقولون إن حدَّة الاستقطاب والخروق الأمنية هي شكلٌ مموهٌ من أشكال الحرب، بما يعني أن في الحرب وضوحًا. وهذه أقوالٌ تعاندها كلُّ صورة من صور المدن والناس في الحرب. أيُّ شكلٍ من أشكال السلام هو أوضح للحياة من أيِّ شكلٍ من أشكال الحرب. ولا مقارنة بين حدَّةٍ سياسيَّة ومعركةٍ عسكريَّة. هذا ما تقوله صور الحرب.

اليوم، تكثر الصور. صارت آلية إنتاجها متاحة ومعمَّمة. قد يتوقَّع المرء أن ينعش هذا التغيير صوتَ المدنيين في الحرب، يثبِّت حضور ضحاياها بأيديهم، ويثبِّت حضور المدن وصوتها في سرديَّات تدميرها. لكن، الأولوية السياسيَّة وحاجاتها الطاغية تأقلمت مع التغيير وأقلمته مع مصالحها، وبخطورةٍ أكبر علينا. فهذه المرة، لم تصادرها بما يهمِّش السرديَّة المدنيَّة ويحدُّ من مسؤولية المتقاتلين عن الجرائم التي يرتكبونها فحسب، وإنما صادرتها لتبرزها كسلاحٍ حربيٍّ.

الصور كسلاحٍ حربيٍّ

لصور المدنيِّين في الحروب اليوم أدوارٌ لا تُعدُّ، وللنقاشات حولها منطلقات لا تحصى. فهي التي تمتلك مصداقية كونها تَدخل الخطر وتَخرج منه، توثِّقه، جامدًا أو متحرِّكًا. وهي التي تُلتَقط تحت الضغط لكنها لا تُنشر تحته، تُختار بين كثرة. وهي الوثيقة التي تدلُّ على الجريمة، وعلى طرف متورط فيها. وبالتالي، هي أداةٌ بيد هذا ضد ذاك. إذا خرجت صورةٌ مغلوطة، تصبح كلُّ صور الجريمة عرضة للتشكيك. وإذا خرجت

فرق الإنقاذ والإسعاف حاضرة عقب تفجير ضخم هز بيروت، 1986

AFP

REUTERS

مصداقيَّة الصورة صارت أداتها في مقاومة محوها وإسكاتها، سورية، 2016

تأقلم معظم الناس مع شروط الصور. أسئلةٌ كثيرة صارت تُطرح اليوم على كلِّ صورة: الخصوصية، الاجتزاء، الاستعراضية، استغلال الضحايا، التواطؤ، الأنانيَّة... إلخ

صورة مؤثرة، تُستخدم لتطهِّر فريقًا وتحرق آخر. فالصورة المؤلمة محاكمةٌ بلا ضوابط، والصورة المغلوطة تقوى على الواقع.

نمت آليات مقاومة الصورة وتخفيف وطأة ما فيها، بعدما تكرَّست كسلاحٍ حربيٍّ. فلمَّا تخرج صورةٌ صادقة بمضمونٍ صادقٍ، تراها تُدان بما لم ترو عنه: سجَّلت جريمة هذا، لكن ماذا عن جريمة ذاك؟ صارت جزءًا من الحرب، وما عادت تدلُّ فقط عليها. والناحية التي استعمرتها الحرب من الصورة هي تحديدًا الصورة ذات الطابع «الإنسانيِّ»، صورتنا. فهي الوحيدة التي يحقُّ لها أن تدين الحرب، لمصداقيتنا كضحاياها.

خلال الحرب السوريَّة، جرى «اختراع» مشهد طفلة مصابة، ملفوفة بالشاش الأبيض، مع عسكريٍّ يؤدي دور طبيب يروي قصة إصابتها، وهي تلعن طرفًا في الحرب، ترميه بتهمة الجرائم كلها، وتبرئ سواه. خطاب الطفلة المصابة هو صوتٌ لا يقاوم، سخَّرته الآلة الحربية - الإعلامية لصالحها. لمَّا انكشف التلفيق، تضرَّر صوت كلِّ طفلٍ/ة في الحرب، ومصداقيته. كذلك، صور ذاك الناشط السوريِّ - الفنلنديِّ الذي يهرِّب الألعاب إلى أطفال **حلب**، اتضح أنها ملتقطة في استديو بعيد في سيناريو بعيد، جلُّ همه إدانة طرف والاستفادة من مكافآت الظهور الإعلامي المكثَّف، من «**سي إن إن**» إلى «**العربية**» ومن «**نيويورك تايمز**» إلى «**هافينغتون بوست**». بفعل هذه الخدع، تسلل شكٌّ إلى الثقة بالصوت المدنيِّ والنضال الإنسانيِّ في سورية. لا يستفيد من ذلك إلا الصوت الحربيُّ. ما عاد يهمِّشنا فحسب، وإنما استعمرنا أيضًا. سخَّر صورنا أداةً حربيَّة. كانت الصورة دليل الوجود، صارت مصدر شكٍّ. وكان المصوِّرون يمتلكون حصانة مسجِّلي الواقع وأصحاب الوثيقة. صاروا شركاء في جرم، يبدأ من الاعتداء على الخصوصيَّة ولا يقف عند اجتزاء الحقائق.

استعادة القوَّة

ما إن تدخل مدينةٌ في حربٍ، سواء أكانت **أجدابيا**، **بغداد**، **دمشق**، أو **بيروت**، حتى تصادر أخبار النار وجهها. أرقامٌ ترصد عدد السيارات المفخَّخة، عدد القتلى، صورٌ توضح حجم الدمار، أخبارٌ تنقل ممارسات الميليشيات، أفق التفاوض... إلخ. عندما تصبح هذه المعطيات شائكة، مكرَّرة، فوضوية، تخفت الحماسة. تكون أحوال الناس الذين يعيشون الحرب قد تدهورت إلى أسوأ معدَّلاتها، لمَّا ننصرف عنهم. تكون الحرب قد استقرَّت بينهم. لكن صورةً تعيدها. صورة المقابر الجماعيَّة لأطفال اليمن الذين قضوا بفعل مجاعةٍ فرضتها الحرب، خرجت عن السياسة. حساب السياسة فيها بدا معيبًا، إجراميًّا.

لم تعد الحروب في بداياتها، وقد تأقلم معظم الناس مع شروط الصور. أسئلةٌ كثيرة صارت تُطرح اليوم على كلِّ صورة: الخصوصية، الاجتزاء، الاستعراضية، استغلال الضحايا، التواطؤ، الأنانيَّة... إلخ. صرنا لا شعوريًّا نبادر نحو التأكُّد. نتأكد من أن هذه الصورة ليست سلاحًا حربيًّا، ومن أن محتواها صادق. لم نتخلَّ عن الصور كلها بسبب احتمال تزويرها، وإنما ترانا نحمل مسؤولية صورة الطفل «**عمران**» المذهول من دمه في عربة الإسعاف في **حلب**. نقاوم تسخيرها ضد طرفٍ، ونشدِّد على رفعها مطلب وقف النار. هناك حركات مقاومةٍ تنشأ بيننا، لكيلا تُسكت الحربُ صورَ جرائمها. وبتلك الحركات التي تضمُّ مصوِّرين ومواطنين وصحافيِّين وناشطين، تحافظ المدن على وجودها في سرديَّات تدميرها.

الصورة تُستعمَر، لكنها لا تُستملَك. ومن اللافت أن قدرتها التأثيريَّة عادت لترتبط بأساسٍ في الصحافة، وهو المصداقيَّة. مصداقيَّة الصورة صارت أداتها في مقاومة محوها، إسكاتها. الصورة ما زالت تروي إذن، لمَّا ترفق بالأدلة ■

أغلب الظن أن المنطقة العربية لم ترَ مثيلًا لموجة النزوح الحالية منذ مائة عام أو يزيد. فقد أُجبر مئات الآلاف على مغادرة مدنهم. الآلاف نزحوا من نينوى والموصل في العراق. وها هي مدن سورية ترى مواطنيها ينهبون الأرض بحثًا عن ملاذ آمن من القصف المستمر الذي يدك جنباتها. وفي ليبيا، يفر سكان المدن من الصراع المستعر، وفي اليمن لن نعدم رؤية عشرات الآلاف من المبعدين من صنعاء وتعز وعدن.

المبعدون عن المدينة

1. أجبر النزاع الدائر في اليمن بضعة ملايين من المواطنين على ترك مدنهم وقراهم. في بعض الأحيان، يتحول هؤلاء النازحون إلى مجرد أرقام وإحصائيات تحملها نشرات الأخبار. بيد أن أرقام النزاع تتخفى خلفها قصص واقعية لأناس كانت لهم أحلام وطموحات حتى في أحلك الظروف. سورية يحيي، ذات الست سنوات، فرَّت من منزلها مع أهلها. تقول: «نجحت في جلب لعبة واحدة من لُعبي [من ألعابي] ولا أعلم مصير الباقي».

2. بعد أشهر من القتال العنيف في الرمادي، نحو مائة كيلومتر غرب بغداد، توقف أزيز الرصاص، وصوت طلقات المدافع. وعندما عاد الأهالي إلى الديار، وقعت أعينهم على مشهد خراب شامل: دُمِّرت البيوت والمدارس والطرق. لا توجد مياه ولا كهرباء. وفي كل مكان حولهم تكمن صواريخ وقذائف غير منفجرة، تتربَّص ضحاياها فتقتل الناجين من سعير القتال وتشوِّههم. من يصدق أن هذه هي الرمادي التي كانت يومًا عامرة؟

REUTERS

3. لا تلوح في الأفق أي علامة على قرب انحسار العنف الذي يعصف بليبيا، فما يزال المشهد خليطًا من نزاعات تؤججها جماعات مسلحة مختلفة الولاءات. وتنوعت حدة العنف مع استمرار نزاعات عديدة من بنغازي في الشرق إلى طرابلس في الغرب وسبها في الجنوب، وكذلك في المساحات الواقعة بينها. وكأي حرب مدينة، فالنتائج متماثلة، آلاف لقوا حتفهم، واضطر مئات الآلاف إلى النزوح، فيما انهارت الخدمات الأساسية، وارتفعت أسعار أصناف الغذاء، واستمر انقطاع الكهرباء، ونقص إمدادات الوقود والمياه، في ظل تعاظم الإحساس بعدم اليقين.

4. وجدت عشرات الأسر الفارَّة من جحيم القتال في حلب مأوى مؤقتًا في هذه المباني المتهدمة (مشروع الـ1070 شقة جنوب غرب المدينة)، لكن هذه الأسر سرعان ما فرَّت من المنطقة بفعل تجدد أعمال العنف بين الفصائل المتناحرة. بعض الأسر شدَّت رحالها إلى المنطقة للمرة الرابعة، تأتي الأسر ثم ترحل هربًا من القتال، لتعيش في العراء، قبل أن تعود إلى المنطقة مرة أخرى.

5. تخفي هذه الابتسامة، رحلة المعاناة الشاقة التي تكبدها هذا الطفل مع أسرته للوصول إلى مكان يمنح بعض الأمان، بعد فراره من القتال الشرس الذي اندلع في مدينة الفلوجة، كبرى مدن الأنبار. عانى سكان المدينة، خلال العامين الماضيين، صعوباتٍ جمة في الحصول على الغذاء والماء والرعاية الصحية الأولية، فيما عانى، من حالفه الحظ وغادر المدينة إلى المخيمات، صعوبة الحصول على الحاجات الضرورية في حياة النزوح.

6. بطول الطريق المتجه شرقًا من مدينة الموصل، عبر السكان الفارُّون من القتال في المدينة في اتجاه مخيم الخازر للنازحين. لقد أدت الموجة الأخيرة من القتال الذي استعر في المدينة منذ تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، إلى فرار آلاف الأسر، كهذه الأسرة التي ترفع راية بيضاء!

يوسف بزي*

البحث في أنقاض المدينة. لبنان، 1985

AFP

بيروت السلم شعرية، بيروت الحرب روائية

خراب المكان كما تسرده الرواية اللبنانية

لم تغب الحرب الأهلية (1975–1990) عن حياة أجيال من اللبنانيين، حتى بعد انتهائها. وهذا، على الأقل، ما يبرر حضورها الطاغي والمستمر في الكتابة اللبنانية حتى يومنا هذا. فالقراء العرب الذين يتبرمون أحيانًا من استغراق الروائيين اللبنانيين في أجواء الحرب واستدعائهم الدائم لمناخاتها، لا يدركون أن الحرب اللبنانية لم تنتهِ حقًّا، لا في السياسة ولا في الشارع ولا في النفوس.

AFP

لبنان، 1975

تمركزت الحرب الأهلية اللبنانية في العاصمة أكثر من أي مكان آخر، حرب شوارع متداخلة وبنايات متقابلة وأحياء متجاورة. حرب التخوم الضيقة بين المناطق السكنية وفيها، حيث احتلال السطوح والطبقات العليا، ومفارق الطرق وناصيات الشوارع. ومعارك شرسة للاستيلاء على هذا المربع السكني أو ذاك، وصراعات «ميليشياوية» لا تنتهي على النفوذ والهيمنة. وهي أصلًا حربٌ يخوضها شبان الأحياء لا الجيوش النظامية. هي ميليشيات كثيرة متحولة في ولاءاتها وتحالفاتها. تبث الفوضى وتفرض نمط حياة خطرة. فتحل لغة السلاح محل القانون. وتسود لغة القوة والعنف والترهيب، والفرز الديموغرافي القسري، والتهجير المتعمد لفئات من السكان. تُمزق العلاقات الاجتماعية، وتُقطع أوصال المدينة، فتتحول إلى مربعات مسورة بالخوف والمعارك، مع التردي المتدرج للخدمات العامة والمرافق والمؤسسات، ومع انهيار البنى التحتية وخراب المباني والأرصفة، وحلول الإهمال في الفضاء العام وانتشار القاذورات والتعديات على الأملاك العامة. هذا النمط من الحروب المحلية والأهلية، المديدة والمتناسلة، المدينية أساسًا، تتسم بالعبث واللا حسم. وتتخللها فترات هدوء قصيرة أو طويلة أشبه بالسلم البارد، تتيح حياة شبه طبيعية، إذ لا تختفي الدولة ومؤسساتها، وفي الوقت نفسه لا تتسيد ولا تسيطر. تتحول إلى إدارة عامة ضعيفة لكنها ضامنة لبقاء الكيان السياسي وحسب (العملة، السجلات العقارية، التمثيل الدبلوماسي، الخدمات الصحية... إلخ). خلال أربعة عقود، خضع المجتمع اللبناني وعمرانه لتحولات عنيفة وجذرية، رسخت غلبة «الأهلي» على «المدني». وثبتت التوزع السكني

* صحافي وكاتب من لبنان

AFP

ألسنة الدخان تتصاعد جراء القصف الإسرائيلي على بيروت في آب/ أغسطس 1982.

والاجتماعي وفق إفرازات الانقسام الطائفي والمذهبي، حتى بات من الصعوبة التحدث عن هوية لبنانية متعالية على هويات ما قبل الدولة: العصبيات الدينية والعائلية.

يوميات بيروت الحرب

أظن أن ما تقدم ضروري كمدخل لفهم طبيعة الكتابة الروائية اللبنانية، أثناء الحرب وبعدها. وهي تصف نمط الحياة الغرائبي والتحولات العميقة المدهشة التي عاينها الكتّاب وعايشوها في يوميات بيروت خصوصًا. كما هو ضروري لفهم التغير المدهش في تقنيات السرد وفي القاموس اللغوي وفي معنى الكتابة أصلًا، وفي ولادة «**الرواية اللبنانية المعاصرة**» من رحم تلك الحرب بالذات، حتى ليقال إن: **بيروت** السلم المتألقة كانت مدينة شعرية، فيما **بيروت** الدمار هي مدينة روائية. في وجه من وجوه النزاعات «الملبننة»، كان الاستيلاء على **بيروت**، أو «غزوها» بالمعنى الديني أو العصبي، يتماشى مع النزوح الريفي المبتدئ منذ الخمسينيات نحو العاصمة الكوزموبوليتانية المزدهرة، التي كانت «تربي» الحقد عليها في نفوس المهمشين و«المستضعفين» والمتأخرين عنها. ونظن أن هذا التعليل للعنف ضد المدينة وعمرانها، قدَّمه الروائي **محمد أبي سمرا** في روايتيه «**الرجل السابق**» و«**سكان الصور**». سرد **أبي سمرا** سيرة أولئك الذين يصلون إلى تخوم العاصمة ويحاولون عبثًا مداراة مراراتهم وحيرتهم وفظاظة عيشهم وعنفهم المنزلي والأسري، وحسراتهم الطالعة من معاينة الآخرين في هناءة العيش واللباقة والتمدن والدعة، فيما هم تتنازعهم مشاعر الضغينة وقلة الحيلة وأحوال الفقر والرثاثة الاجتماعية. وتكمن قوة روايات **أبي سمرا** في دقتها السوسيولوجية، إذ تصوِّر بعين كاشفة جماعات نزوح أهل الريف «المسلمين» والصدمات التي عاشوها في التفاوت الفاضح بينهم وبين شروط العيش في مناخات **بيروت** الحديثة. وهو يكرس اتهامًا ثقافيًّا لأولئك الأفظاظ والأجلاف المنضوين في أحزاب اليسار والعروبة بمسؤوليتهم عن الحرب، وتخريب **بيروت** عمدًا، وتقويض عمرانها، وتمزيق نسيجها السكاني وتهجير نخبها وأجانبها. تصف «**سكان الصور**» البدايات الاجتماعية لاستعداد شبان الضواحي وفتيان أحزابها للانقضاض على المدينة التي تتنازعهم تجاهها مشاعر الإعجاب والكراهية، أو التماثل مع قيمها ومظاهرها والخروج عليها، تمردًا وتقويضًا، في آن واحد. فيما يكرس **إلياس خوري** معظم رواياته، ومنها «**الجبل الصغير**» و«**الوجوه البيضاء**» و«**رحلة غاندي الصغير**»، ليروي حبكة قائمة على جريمة تقع في **بيروت**. من الجريمة تتناسل حكاياته عما جرى في شوارع المدينة في سنوات الحرب. يصاب، هو اليساري المنتمي لحركة «**فتح**»، بالصدمة العميقة في الفارق بين الثورة التي كان يطمح إليها وواقع الحرب. الأولى كانت تعني له «الحياة» فيما الثانية هي «الموت». على هذا الفارق تتأسس روايات **إلياس خوري** الأولى التي كرسها لسرد الخيبة، عبر تسمية ما يجري بالجريمة. هكذا يجد **خوري** نفسه مطرودًا من مسقط رأسه «الأشرفية» (ذات الأغلبية المسيحية) على يد الميليشيا اليمينية، ثم يجد نفسه منخرطًا في هجوم عبثي مع ميليشيا اليسار و**منظمة التحرير الفلسطينية** ضد مسقط رأسه بالذات حيث أقاربه وجيرانه. هكذا ينسحب **إلياس خوري** من الحرب بمرارة شديدة ستستمر في كل رواياته، حيث يسرد (كيساري عنيد) ما يكرهه في **بيروت**، وما يحبه فيها. يسرد خسارته **لبيروت** أخرى مستحيلة بقيت في مخيلته ولن تتحقق. شيئًا فشيئًا، سينتقل في أسلوبه ومناخاته من اللغة الشعرية السياسية إلى لغة أكثر نثرية ومفعمة بالصور العنيفة والحادة.

تُعد رواية «**بناية ماتيلد**» **لحسن داوود** أفضل مثال على أفعال الحرب وأثرها غير المباشر على العمران والعلاقات بين السكان. بناية يقطنها روس بيض وبرجوازيون مسيحيون ومسلمون صاعدون اجتماعيًّا وطالب آتٍ من الريف. هي مثال الاختلاط المديني. رواية المكان ورواية الداخل الاجتماعية، بعين الروائي/ الراوي، الذي كان بالفعل يعيش في هذه البناية. بكثير من التفاصيل الدقيقة والسرد المتمهل، يرصد **داوود** تلك التغيرات اللا مرئية التي تفرضها أجواء الحرب على سكان «**بناية ماتيلد**». التهجير الصامت، الغياب المفاجئ، تحول في علاقات الجيرة، في لغة السكان وألفاظهم وسلوكهم، في تدبير أسباب المعيشة اليومية، في عواطفهم وانقلابات تلك العواطف، وصولًا إلى جريمة ذاك

الطالب الذي قطَّع فيها أوصال صاحبة الشقة أي «**ماتيلد**» نفسها (وهي واقعة حقيقية). جريمة أشبه بخاتمة بالغة الفظاعة لما حلّ بعلاقات سكان **بيروت** فيما بينهم، حيث العنف الهمجي يهدد المدينة برمتها. فيما بعد، سيبدع **حسن داوود** بروايته «**غناء البطريق**»، راسمًا ما ستشهده بيروت بعد انتهاء الحرب، حيث مشروع إعادة البناء والإعمار هو خراب من نوع آخر يصيب روح المدينة بالخواء واللا معنى.

نجد في روايات **رشيد الضعيف**، ومنها «**تقنيات البؤس**» و«**المستبد**»، مقاربة أخرى، هي مصير فرد وحيد أعزل ومسالم، وعلى الأغلب «مثقف مسيحي»، يعيش في **بيروت الغربية** التي تسيطر عليها «ميليشيات المسلمين» (حينها لم تكن «إسلامية»). يدل العنوان «**تقنيات البؤس**» تمامًا على مناخ الرواية: كيف لرجل متوسط الحال، متعلم وحريص على العيش اللائق والمتمدن أن يبتكر تقنيات ووسائل الحياة من مأكل جيد وماء نظيف وخدمات يومية في قلب مدينة تتهاوى وتتحلل فيها كل شروط كرامة الحياة ورفعتها؟ يسقط بطل روايات **الضعيف** في دوامة الرهاب الدائم من الخطف أو القتل أو الموت بقذيفة. يعيش حالة الخوف والرعب. ويتحول المنزل إلى ملجأ وسجن مليء بالوساوس والكوابيس، فيما التجول والمشي في شوارع المدينة هو مجازفة بالغة الخطورة. «التروما» [الصدمة] التي تلازم الضعيف ستبقى في روايات ما بعد الحرب أيضًا: الحب المستحيل والمُتشيِّئ، العلاقات المأزومة والانحطاط الأخلاقي والبورنوغرافيا والابتذال اللغوي والبشاعة التي لا يزيلها كل الترميم الذي يطال المدينة.

ثمة نص روائي استثنائي كتبه **فادي الطفيلي** بعنوان «**اقتفاء أثر**»، يروي انطلاقًا من اكتشاف جثة أستاذ مدرسة في حي **زقاق البلاط** البيروتي، الاعتداء المنهجي والعنيف الذي أوغل بجسم هذه المنطقة السكنية الراقية التي تكثر فيها أفضل المدارس في بيروت، والتي أسستها الإرساليات الأجنبية. يروي حيثيات هذا «الغزو» الأهلي المسلح الذي يدفع السكان الأصليين – متعددي المشارب والجنسيات والأديان – للهجرة المذلة والقسرية. ويرصد ما يفعله هذا التوغل البطيء والعنيد في العمران وفي الفضاء العام، وما يجلبه من عنف في كل التعبيرات والعلاقات والسكن، كأن تتحول مثلًا واحدة من مدارس الأرمن إلى سجن حزبي يمارس فيه تعذيب الأبرياء. هذا النص ينبهنا إلى أن الإنجاز المعماري الوحيد للحرب في **بيروت** وضواحيها هو ظهور المقابر الجديدة، ساردًا على نحو توثيقي نشوء مقبرتي «الشهداء» و«روضة الشهداء» في أجمل بقعة **ببيروت** «حرش الصنوبر» (كان غابة واسعة من شجر الصنوبر قبل اندلاع الحرب) ■

الحرب تلهم البعض سينمائيًّا:

للسينما العالمية والعربية باع في معالجة الحروب وتأثيراتها حين يكون موقعها المدن. وقد سجلت أفلام عدة، الأضرار التي لحقت بالمدن وسكانها جراء المعارك المسلحة، من حرب يوغوسلافيا مرورًا بالحرب الأهلية اللبنانية وصولًا لحروب مدن الشرق الأوسط الحالية.

لم تمنع الحرب العديد من السينمائيين السوريين من صناعة أفلام تطرح صورًا متعددة للحرب في بلدهم، وعلاقتها بالمدن التي يعيشون فيها. والعاصمة **دمشق** هي المدينة الأكثر حضورًا في الأفلام السورية الروائية التي أُنتجت في السنوات القليلة الماضية (2012 - 2016). إذ ساهمت المؤسسة العامة للسينما في **دمشق** في دعم خروج بعض الأفلام السينمائية السورية التي تتناول الحرب. فمثلًا يطرح المخرج **عبد اللطيف عبد الحميد** في فيلم «**أنا وأنتِ وأمي وأبي**» (2016) قراءة للأزمة السورية من خلال أسرة تعاني انقسامًا حادًّا في الرأي بين أفرادها. فالأب أستاذ الجامعة يعارض الحكومة، ولا يوافق على آراء الزوجة والابن الشاب، كونهم يرفضون الفصائل المعارضة. يتحول البيت الصغير إلى شبه معتقل للأسرة، يشعر كل فرد فيه بالوحدة والقهر والرفض من الآخر. وتزداد الأمور سوءًا عندما يُرفض الشاب من قبل أسرة الفتاة التي يحبها (جارتهم في المنزل المقابل). الفيلم يصور واقع المدينة الواقعة تحت الحرب، وحياة السكان؛ خوفهم وهلعهم حين تضرب القذائف أحياءهم.

ويستأنف **باسل الخطيب** في فيلم «**سوريون**» تقديم صورة ثالثة حية للحرب في سورية، بعد فيلميه «**مريم**» و«**الأم**». الفيلم يطرح قصة عن المدينة التي هجرها الابن الشاب بعد أن فقدت أمنها، وذهب إلى مدينة صغيرة لا تزال تحتفظ بملامح ريفية. وهناك يقابل صحافية ترصد أجواء القتال. ينجح الفيلم، الذي يتمتع بلغة بصرية فائقة، في تصوير حجم الدمار الذي يصيب الأماكن الحضرية والريفية على السواء جراء الحرب. وفي فيلم «**سلم إلى دمشق**» من إخراج **محمد ملص**، يتقابل الهاربون من حروب المدن الصغيرة في أكبر المدن، العاصمة **دمشق**، في فندق صغير كان بالأمس بيتًا لأسرة هجرته بسبب النزاع، ومن خلال لقاءاتهم تتكشف تدريجيًّا حقائق كثيرة عما حدث لكل منهم في الحرب داخل شوارع المدينة وأزقتها.

ملصق الفيلم المصري «بورسعيد»، 1957

ماجدة موريس*

عدسة الفن السابع تلتقط دمار المدن

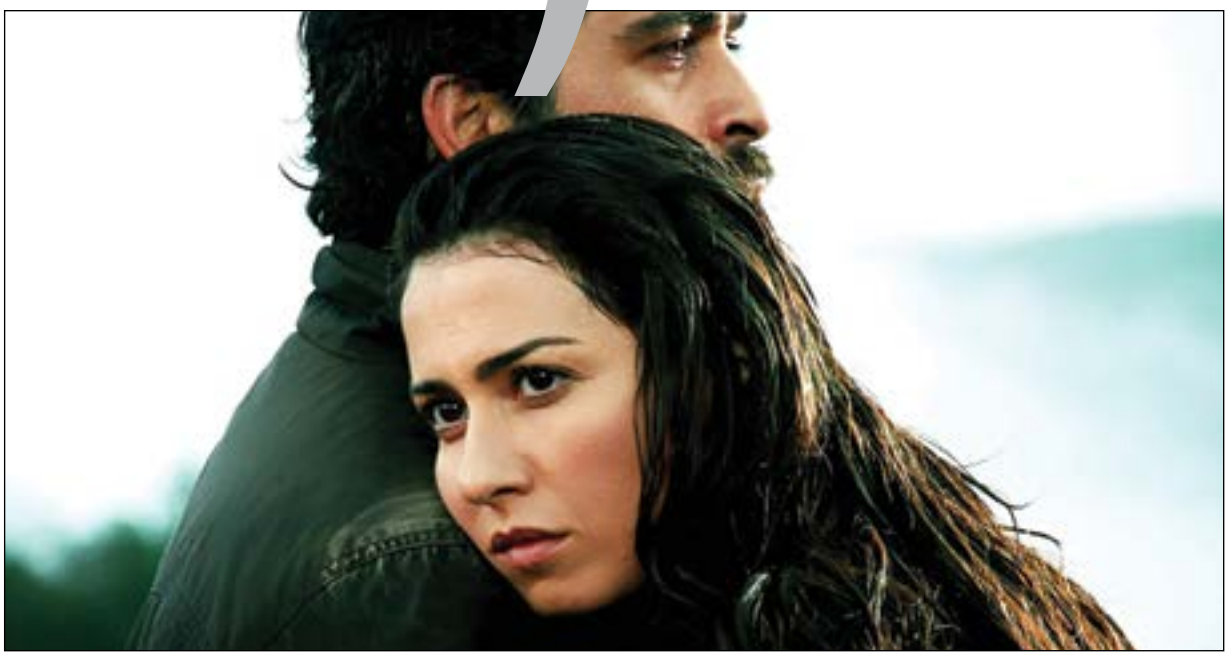

من الفيلم السوري «سلم إلى دمشق»، 2013

توثيق الجريمة

قدمت السينما التسجيلية عددًا من الأفلام عن حروب المدن. وتكمن أهمية هذه الأفلام في قدرة صناعها على التصوير وسط الحروب، وعلى متابعة المتحاربين من موقع لآخر وعلى الدخول في مناطق الخطر. وكذلك على تسجيل اللحظات الأكثر صعوبة في حروب المدن، كعمليات هدم البيوت فوق سكانها، والمطاردات بين الفرق المتحاربة واقتحام الموانع. واستطاعت هذه السينما تسجيل أغلب المعارك التي دارت في عالمنا المعاصر في أفلام قصيرة وطويلة أصبحت الآن ضمن أهم الوثائق عن التغيرات التي حدثت للمدن التي ضربتها النزاعات. وإذا جاز لنا التفرقة بين أنواع الحروب، فحروب المدن هي أكثر الحروب دمارًا للنفس البشرية. ويكفينا متابعة بعض ما يحدث في فلسطين المحتلة، وما قدمه مخرجون مثل **إيليا سليمان** في أفلام «**سجل اختفاء**» (1996) و«**يد إلهية**» (2002)، وهاني أبو أسعد في «**القدس في يوم آخر**» (2002) و«**عمر**» (2013). تدور هذه الأفلام حول معركة المواطن الفلسطيني ضد الاحتلال في مدينته وقريته، ومعارك العبور من حي لآخر، ومن شارع لشارع ومن مربع سكني لآخر، خاصة بعد إقامة الجدار العازل الذي حرم الفلسطينيين من الحركة داخل المدن التي يقيمون فيها. وهذه المعارك كلها داخل المدن الفلسطينية تحتاج إلى كتاب بأكمله لرصدها، كتاب مفتوح لأنها تحدث يوميًّا، وعلى مرأى ومسمع من العالم كله. ومثال على هذا فيلم تسجيلي فلسطيني عنوانه «**الطوق الأبيض**»، من إخراج **حنين جابر**. يدور هذا الفيلم حول شاب ذهب صباحًا ليحضر خبز الإفطار من مخبز قريب من المنزل، وحين عاد غير طريقه إلى شارع آخر استوقفته فيه كتيبة من الجنود الإسرائيليين بالمدافع الرشاشة طلبت منه رفع الأيدي، وخلع ملابسه، وأخيرًا أطلقت عليه النيران فمات بجانب أرغفة الخبز الساخنة.

غلة مصرية قليلة

قدمت الأفلام الروائية المصرية الطويلة نماذج قليلة لمعالجة حروب المدن، فمن بين أربعة عشر فيلما قُدمت عن الحروب المصرية الحديثة (1956 - 1973)، هناك فيلمان فقط عن حروب المدن هما: فيلم «**بورسعيد**» (1957)، إخراج **عز الدين ذو الفقار** الذي تناول وضع المدينة بعد عام من انتهاء «**حرب السويس**» (1956). وقد بدا في الفيلم واضحًا تأثير الضربات الجوية على المساكن، وكيف تهدم منزل بطل الفيلم ومنزل جيرانه، إضافة إلى ما لحق به وبجيرانه من خسائر أخرى بسبب خيانة واحد من أبناء المنطقة. سرب هذا الشخص معلومات عن عناصر المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الإنجليزي. وكانت وسيلته في تسريب هذه المعلومات ممرضة إنجليزية حاولت إيهام الناس بمحبتها للمصريين، فيما هي تحاول نقل كل شاردة وواردة لقيادات الجيش الإنجليزي.

أما الفيلم الثاني فهو «**حكايات الغريب**» (1992)، إخراج **إنعام محمد علي**، عن قصة للأديب المصري الراحل **جمال الغيطاني**. تدور أحداث الفيلم في فترة الحربين: حرب حزيران/يونيو 1967 وما بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973. وموضوعه انتقال عدوى المقاومة الشعبية وتصاعد المشاعر الرافضة للهزيمة العسكرية في شوارع مدن القناة. محور الفيلم هو التحول الذي طرأ على شاب مصري من شعور بالانهزامية والسلبية في أعقاب «النكسة»

وثقت السينما الفلسطينية صراع المدن ومعاركها تحت الاحتلال

* ناقدة سينمائية مصرية

من الفيلم اللبناني «بيروت الغربية»، 1998

إلى شعور بالمقاومة ورفض الظلم الذي يفرضه أحد البلطجية على الأهالي في مدينة **السويس.** نجح الشاب في تحريك مشاعر الناس للدفاع عن حقوقهم، وفي الخلفية صور الحرب والدمار الذي لحق بمدينة السويس.

حزام العراق الأخضر

في سجل السينما العراقية العديد من الأفلام التي تتناول الحروب وما فعلته في البشر، غير أن هذه الأفلام لم تعالج حروب المدن على وجه التحديد. انصب اهتمام المخرجين العراقيين كـ **محمد الدراجي** و**سمير نصري** و**فيصل الياسري** إلى تقديم أفلام تتحدث عن دور الحرب عامة في تفكك البنية الأساسية للمجتمع، وتحلله إلى طوائف. لكن من ناحية أخرى، قدم سينمائيون أميركيون رؤيةً حول النزاع المسلح في العراق من زاوية الحرب على المدن. فمثلًا يدور فيلم «**خزانة الألم**» (The Hurt Locker)، 2008، إخراج كاترين بيجلو (Kathryn Bigelow)، حول فرقة من الجنود الأميركيين مختصة بتفكيك العبوات الناسفة والأسلحة المخبأة في شوارع العراق. يعالج الفيلم أسئلة عن كيف تقوم هذه الفرقة بعملها في إطار ظروف معقدة، منها الطبيعة الصعبة لبعض الأماكن داخل المدن. والصراع النفسي لضباط هذه الفرقة عندما يطرح أحدهم سؤالًا لنفسه حول إمكانية موته وهو يفكك الألغام، وماذا سيحدث لعائلته. حصد الفيلم ست جوائز أوسكار في العام 2009، في فئات أفضل فيلم وأفضل مخرج وأفضل إنتاج وأفضل مؤثرات صوتية وأفضل مونتاج صوتي وأفضل نص. أما فيلم **المنطقة الخضراء** (Green Zone)، 2010، إخراج **بول جرينجر** (Paul Greengrass)، فيستعرض صور الدمار الذي تسببه الحرب لمناطق العراق، ومنها الأحياء الحضرية، وشكل الإدارة والحياة داخل «المنطقة الخضراء». قصة الفيلم تدور حول ضابط أميركي يبحث عن أسلحة دمار شامل في العراق، لكنه يكتشف في النهاية أن البلاد التي نُكبت بالحرب لم يكن لديها أسلحة دمار شامل.

أشباح بيروت

كانت الحرب الأهلية (1975–1990)، وما تزال، مصدر إلهام لغالبية صناع السينما اللبنانية في بداياتهم وحتى اليوم. من هؤلاء **مارون بغدادي** الذي أخرج فيلمه «**حروب صغيرة» في العام 1982.** تدور أحداث الفيلم عشية اندلاع الحرب الأهلية، فنرى كيف جرى اعتقال مواطنين عزل في الشوارع، واقتيادهم وهم معصوبو الأعين، إلى جهات مجهولة، أو استخدامهم دروعًا بشرية. يصور الفيلم الانفجارات التي ضربت **بيروت**، ويلتقط مشاهد لاهتزاز مبانٍ، وانهيار عقارات ومطاعم ومحال تجارية وقد تناثرت محتوياتها مع أشلاء البشر الذين قضوا نحبهم جراء القذائف. أما فيلم «**بيروت الغربية» (2006)**، إخراج **زياد دويري**، فهو يتحدث عن براءة الطفولة التي وجدت نفسها وسط الحرب من خلال ثلاثة مراهقين تعاملوا مع ما يحدث حولهم – أي الحرب – كلعبة مسلية. لكن اللعبة أصبحت شاقة عليهم وهم يرون ما تفعله القذائف بالناس حولهم من قتل وتمزيق. وفي فيلم المخرج غسان سلهب «**أشباح بيروت**» (1998)، يبدو البشر وقد اخترقت الحرب ذاكرتهم وشرخت قدراتهم على استيعاب الأحداث. فبالرغم من صمت المدافع وفتح الطرقات والبدء في إعادة الإعمار، فإن الأمر يبدو وكأن الحرب ما زالت مستمرة، في ظل سيطرة حالة من التشاؤم على أهلها ■

الحرب الأهلية اللبنانية (1975–1990)، كانت وما تزال، مصدر إلهام لغالبية صناع السينما

فيروز كراوية*

مدن القناة المصرية وتجربة مقاومة الحرب بالغناء

«يا بيوت السويس يا بيوت مدينتي»

لا يمكن لمدينة تعيش ظرف الحرب أن تثابر في هذا الزمن العصيب دون اللجوء لعنصر فني داعم ومؤثر. هكذا عرف العالم كله الترابط الوثيق بين التحفيز بالموسيقى والغناء وحلقات الرقص الجماعي، وفترات الثورات الشعبية والحروب المضنية.

AFP

مصر، 1957

كانت مصر من البلاد التي ازدهرت فيها الطقوس والمظاهر الفنية بالتزامن مع فترات مقاومتها لاستعمار وراء استعمار. وفي انتفاضاتها الشعبية غير المكتملة وكذلك في حروبها التي طالت المدن، خاصة المدن الواقعة على ضفاف قناة السويس كخط مواجهة أول، تدور في عمق شوارعه معارك حربية وملاحم شعبية بطولية في مواجهة قصف ورصاص استهدف البيوت والمدنيين المقيمين بها [خلال حروب عامي 1956 و1967]. والعنصر الفني الأسهل في استدعائه أثناء أجواء التوتر الحربية، هو بالتأكيد كل فن «شعبي» نشأ بين حواضن المدينة ودرج سكانها على الاستماع إليه والمشاركة في صناعته واستقباله. الحضور الشعبي لفن متواتر بين سكان المدينة، يؤكد على روحهم التضامنية، ولهجتهم المحلية الخاصة واستعاراتها التي تحمل صلات ومعاني ذات خصوصية. وهذا الحضور يختلف اختلافًا جوهريًا عن الحملات المنظمة لفن رسمي يقدمه فنانو العاصمة أو المؤسسات الرسمية كالإذاعات والتليفزيونات، وإن حملت الغرض نفسه من رفع للروح المعنوية وشد من أزر المقاومة الشعبية في زمن الحرب.

المدينة «بركان فوَّار»

بدأ انضمام مدن القناة لخطوط المقاومة الشعبية في مصر، إبان فترة ارتفاع حدة التوتر تجاه الاحتلال الإنجليزي للبلاد، ثم حريق العاصمة القاهرة الشهير في كانون ثاني/ يناير 1952 ثم أخيرًا ثورة تموز/ يوليو 1952. يقول المؤرخ البورسعيدي والشاعر **الفنان محمد عبد القادر** إن أغنية «**حروف من نور وحروف من نار**» هي أول الأغنيات التي ظهرت بعد حريق القاهرة على أنغام السمسمية [آلة موسيقية وترية شعبية، لها خمسة أوتار تشبه آلات مثيلة ظهرت في حوض البحر المتوسط وشبه القارة الهندية]. حملت هذه الأغنية نبرة وطنية حماسية، وجرت استعادتها في مراحل لاحقة في الخمسينيات، بعد تغيير بعض كلماتها.

وحروف من نور وحروف من نار
اكتب يا زمان مجد الأحرار
في بورسعيد بركان فوَّار
ما قدرش عليه حزب الأشرار

ومن المعروف أن صمود **بورسعيد** في معركة العام 1956، كان حدثًا اكتسب زخمًا عالميًا، وغيَّر من إدراك أهل المدينة لكينونتهم، ومركزية وجودهم في عالم جديد يتشكل بعد جلاء نهائي للمستعمر. لذلك حازت السمسمية في ذلك الوقت تمثيلًا أكبر من كونها آلة موسيقية شعبية، فانضوت في مكونات هوية مصرية جامعة كأحد توجهات النظام البازغ وقتها. آنذاك، امتهن العازفون المهرة من أبناء بورسعيد العزف على السمسمية وأتقنوه. ويُعد إبراهيم خلف أبرز هؤلاء ويُوصف بأنه «**المعلم الأول**» لمن تلاه من عازفين، مثل **كمال عضمة** وبعده **محمد الشناوي** و**محمد عبد القادر** وجيل الأوائل من عشاق السمسمية. أطلق البعض على الآلة «**النذَّاهة**» (تعبير شعبي مصري يصف حالة الافتتان حتى الوله الذي يسيِّر صاحبه لدروب مجهولة) التي تسبي قلوب العازفين حتى «**يطير عقلهم**» على حد تعبير الفنان **محمد الباسوس**، أحد عازفي السمسمية المعاصرين في بورسعيد.

«ثلاث دول ضد مدينة»

احتفت السمسمية، بنهاية الحرب في بورسعيد وتحرير المدينة في العام 1956، بأغنيات صارت علامات تاريخية مثل «**في بورسعيد شباب ورجال**» و«**في بورسعيد الوطنية**» و«**مورهاوس ليه بس جيت**»:

في بورسعيد شباب ورجال
الفخر ليكو مدى الأجيال
حاربنا جيش الاحتلال
سبع ليالي وصبحية... آه يا سلام
سدوا الكنال [القناة] ولا عادش مرور
قطعوا المياه وكمان النور
والعيشة صبحت زور في زور
سبع ليالي وصبحية
حيوا معايا البطل مهران
له في التاريخ قصة ونضال
قدم عيونه فدا الأوطان
وتعيش بلدنا في حرية

وكان الكاتب والملحن لهذه الأغاني، ولنحو ألف أغنية أخرى ودور، تنوعت بين الوطنية وأغاني المناسبات، هو **أبو يوسف**، الذي يشار له كعلم أساسي في النشأة الجديدة للسمسمية، مع **الدمرداش** وهو من مبدعي أغاني البحر الراسخة في بورسعيد. زادت أوتار السمسمية وتنوعت مقاماتها، وإن لم يتسق هذا التطوير مع ذائقة السمِّيعة الأصليين للآلة الذين يرون أنها شردت عن طابعها الخماسي وصوتها الحاد الذي يميزها عن باقي الآلات الوترية.

في بورسعيد الوطنية
شباب مقاومة شعبية
دافعوا بشهامة ورجولية
وحاربوا جيش الاحتلال
مبروك يا جمال
تلات دول على مدينة
اسمع وفسر يا أخينا
ياما جرالهم منِّينا [منَّا]
وولُّوا من أول مشوار

تكونت فرقة للسمسمية في الإذاعة المصرية في الستينيات تحت إشراف الفنان **زكريا الحجاوي** الذي اهتم بجمع التراث والفولكلور من جميع أنحاء مصر. وذاعت شهرة أغانيها في

ليست مصادفة أن مدن القناة بتسمياتها الحديثة نسبيًّا (السويس، بورسعيد، الإسماعيلية) كانت منذ بدء عملية حفر قناة السويس على موعد مع تدفق لتيارات عالمية كوزموبوليتانية. وكان لتوافد العمال المصريين والعبيد من أنحاء أفريقيا (الذين استقروا في الإسماعيلية، قبل صدور قانون إلغاء الرق في العام 1877) أن أورث موسيقاها طابعًا خاصًّا، هجينًا يكتسب أصليته من روافده المتنوعة وليس من انغلاقه على ذاته، تمامًا ككل البلاد التي انفتحت ثقافتها بسبب نافذتها البحرية. فاحتفظت لتراث هذه المدن الثلاث بنكهة تميِّزه بين مكونات الفولكلور المصري الصعيدية والأفريقية النوبية والفلاحيّة والبدوية، تراث «الطنبورة» و«السمسمية» و«الرانجو» حلَّق هو الآخر في مساحته الخاصة، وكان سندًا لمقاومة شعوب مدن خط النار.

ارتحلت الطنبورة (وهي أول أشكال آلة السمسمية التي تحوي خمسة أوتار) على أيدي الجنوبيين من أهالي صعيد مصر والنوبة والسودان، الذين انتقلوا عبر سواحل البحر الأحمر وراس سدر ثم السويس، ومنها إلى بورسعيد أثناء مراحل حفر قناة السويس وبعد افتتاحها. ويقال إن عبد الله كبربر العازف السوداني الأصل هو أشهر أوائل عازفيها. لذا ظلت تأثيرات السلم الخماسي الأفريقي حاضرة بقوة في أغنياتها وكذلك في بعض ألفاظ الأغاني. وعبر البحر الأحمر أيضًا التقطت الطنبورة ومؤدوها التأثيرات الخليجية الإيقاعية والهندية، إذ تذكرنا نشأة الآلة الوترية الشعبية بنشأة مثيلاتها في الهند وحِدة أوتارها الحديدية، وكذلك بشبيهات في حوض البحر المتوسط أقربها صوتيًّا «الماندولين».

وعاشت الطنبورة عبر حلقات «الضمَّة»، التي كانت طقسًا شعبيًّا بورسعيديًّا خالصًا، يحدث دوريًّا في أحياء جنوب المدينة، تحديدًا حي المناخ ومقاهيه وأشهرها مقهى «السبعة سواقي أو السبع حصون» ومقهى «سوق العصر». يجتمع العازفون والمغنون والراقصون في حلقة، مدعوين من المقهى أو من صاحب فرح ليقضوا ليلة ساهرة، ويتحلق حولهم جمهورهم الذي يظل واقفًا إذا لم يكن من حفظة الأغاني. تلك قوانين الحلقة، الجلوس لمن يحفظ ويغني. اشتهرت وقتها أعمال تدور حول أغاني المناسبات والزفاف (الليلة ليلة جميلة مفرحة ومشجية) والحج (الله يا دين النبي)، وأغاني الغزل الذي كان فرعًا أصيلًا يحمل أيضًا لونًا شعريًّا متفردًا من ألفاظ بدوية وفصحى وعامية في خليط رائع (دور زارني المحبوب، ودور غصن الحبيب، ودور نوح الحمام).

التاريخ الطويل الذي شهد انتشار السمسمية والطنبورة في مدن القناة دشَّن هذا الفن من أوله وحتى آخره كفن شعبي خالص

AFP

تعرف المصرية جيدًا معنى حروب المدن، 1956

بورسعيد وما حولها. فيما احتفظت **السويس** بالطابع الخماسي والجنوبي أكثر بحكم إقامة «**أهل الرانجو**» بها**. كما كوَّن الفنان **سيد الملَّاح**– وهو بورسعيدي الأصل– كذلك فرقة إذاعية تغني على أنغام السمسمية لعدة سنوات متصلة.

المدينة تواجه التهجير

انفجرت الحالة الفنية وارتبطت بالمقاومة الشعبية عقب «نكسة 1967» [حرب حزيران/يونيو 1967]، وتهجير أهل بورسعيد خارج مدينتهم، فكونوا فرقًا تنشد، مستخدمة السمسمية، أغاني المقاومة وانتصار العام 1956. كانت تلك الحالة كما يروي عنها الفنان **محمد عبد القادر** أشبه بحمَّى تجتاح أهل **بورسعيد** المهجَّرين حنينًا لمدينتهم ودفاعًا عن هويتهم المحلية في «**تغريبة**» يعيشونها، وكذلك تحميسًا واستبقاءً لشعلةِ المقاومة أثناء حرب الاستنزاف الطويلة. من أشهر تلك الفرق كانت «**فرقة البورسعيدية**» من عمال مصنع الغزل والنسيج في محافظة **الشرقية** التي أطلقت أغنية اشتهرت كثيرًا في هذا الوقت: «**هانت يا بلاطوة هانت، والله الصبر أهو طيب، والعودة لاحت وبانت، وهنرجع والله قريب**»***. وألف الشاعر البورسعيدي **إبراهيم الباني** عددًا من الأغاني عن التهجير منها «**فجر الرجوع أهو لاح**»، و«**يا مسافر بورسعيد**»، و«**يا مداين الكنال**».

يوم الهجرة دا كان مشؤوم
أروح طنطا والسلوم
يومها أنا عيني ما شافت نوم
وعقلي شت في كل مكان
ياما قريت وسمعت زمان
عن الناس الإسكندران
دول ناس بحاروة وناس جدعان

في وقت الحرب كان الغناء رفيق أبناء المدينة في هجرتهم أو بقائهم، إذ رسخت هذه الأغنيات مدن بورسعيد وإسماعيلية والسويس في ذاكرة أبنائها وكذلك في ذاكرة الوطن

ياما قريت وسمعت زمان
بورسعيد إسكندرية وإسكندرية بورسعيد
هما ناسهم فهلوية وإحنا ناسنا برضو حديد
عندكو المنشية وف بلدكم راس التين
عندنا منشية وعندنا برضه الأمين..

يضاف إلى هؤلاء المنتشرين بالمحافظات ثلاث شخصيات رئيسة آثرت البقاء في مدنها: الفنان **كامل عيد** في بورسعيد، الفنان **محمد أحمد غزالي** [الشهير بـ كابتن غزالي]، مؤسس فرقة «**ولاد الأرض**» في **السويس**، و**حافظ الصادق** مؤسس «**فرقة الصامدين**» في **الإسماعيلية**. إذ ظل إنتاج هؤلاء من كلمات وألحان هو عماد المقاومة الفنية في تلك المحافظات الثلاث، وشاهدًا على بقاء أبناء المدينة متسلحين بالغناء في مواجهة الموت المحدق. كتب **كامل عيد** ولحَّن مئات الأعمال أشهرها «**هجَّرنا المصنع والولاد**»، وذاعت شهرة «ولاد الأرض» بسبب أغنيتها «**يا بيوت السويس**»، وهي من كلمات عبد الرحمن الأبنودي، و«**غني يا سمسمية لرصاص البندقية**» **للريس غزالي**:

غنِّي يا سمسمية لرصاص البندقية
ولكل إيد قوية
حاضنة زنودها المدافع
غنِّي لكل عامل
في الريف وفي المعامل
بيأدي الواجب كامل
وادِّيله وردة هدية
غنِّي ودق الجلاجل
مطرح ضرب القنابل
راح تطرح السنابل
ويصبح خيرها لي

وامتدت شهرة «**ولاد الأرض**» لإحياء حفلات وسط الجنود المصريين المرابطين على جبهة القتال، وكذلك في حفلات عامة للجمهور. وقد أرَّخ **كامل عيد** لهذا التاريخ والأعمال الفنية في كتابه الوثيقة «**بورسعيد علم ونغم**».

يا بيوت السويس يا بيوت مدينتي
أستشهد تحتك وتعيشي أنتِ
هيلا هيلا هيلا يالا يا بلدية
شمر دراعاتك الدنيا أهيا
وإن باعوا العمر في سوق المنية
رفاقة هنروح السوق نجيبه
ونعود ونغني ع السمسمية
ليكي يا مدينتي يالي صمدتي
يا بيوت السويس

إذن فالتاريخ الطويل الذي شهد انتشار السمسمية والطنبورة في مدن القناة دشَّن هذا الفن من أوله وحتى آخره كفن شعبي خالص، ساهم فيه أبناء المدن الثلاث بروحهم المحلية وثقافتهم المنفتحة ورغبتهم– أولًا وأخيرًا– في الحياة رقصًا وغناءً واحتفاءً. وفي وقت الحرب كان الغناء رفيق أبناء المدينة في هجرتهم أو بقائهم، إذ رسخت هذه الأغنيات مدن بورسعيد وإسماعيلية والسويس في ذاكرة أبنائها وكذلك في ذاكرة الوطن، ترسم صورًا لأحياء المدينة وتحتفظ بأسمائها، وتروي عن البطولات الشعبية وملاحم التضامن الإنساني، وتحتفل بالصمود والمقاومة، لتكون بمثابة وثيقة فنية دائمة، نفخ فيها أهل المدينة من روحهم وحكاياتهم ونوادرهم وشهدت على حياتهم اليومية ■

★ فنانة مصرية وكاتبة.
★★ الرانجو آلة ذات إيقاع منغم أتت من جنوب السودان، وتُعد نوعًا من أنواع «الماريمبا»، لكنها أكثر بساطة، إذ تصنع يدويا من الخشب. وقد أدخلها السودانيون إلى مصر في عشرينيات القرن التاسع عشر.
★★★ بلاطوة نسبة لأهل بورسعيد التي كانت تسمى «البلط» تحويرا عن لفظة «بورت» الإنجليزية

مدن تأبى الهزيمة

قبل عقود طويلة خلت، نظم شاعر فارسي عاش في القرن السابع عشر ويدعى صائب تبريزي شعرًا في الحاضرة الأفغانية كابول. فتغنى بشوارعها الآسرة للعين، وأعجب بأسواقها ومتاجرها وما تحويه من بضائع دول من أقصى الشرق والغرب، وفُتن، خاصة بأقمار تومض على أسطحها، وشموس تتخفى وراء أسوارها. خبت هذه الصورة في عصرنا هذا، إذ انزلقت كابول إلى حرب لا ترحم. وربما لم تعانِ مدينة من نزاع طال أمده، مثلما عانت. فهي، ومنذ أواخر السبعينيات، هدفٌ للرصاص والقنابل والمفرقعات، بعدما كانت مقصدًا للشعراء والتجار والرحالة. لكن كابول لم تيأس قط، فبعد كل موجة دمار، يستأنف أهل المدينة حياتهم، فتخرج الأسر للتنزه كل يوم جمعة، فيما يحمل الأطفال طائرات ورقية بكل ألوان الحياة، تحلق في سماء مدينة تأبى الهزيمة.

ICRC

حاوره: **أحمد زكي عثمان**

REUTERS

العراق، 2017

حوار مع كبير جراحي اللجنة الدولية ماركو بالدان:

استخدام الأسلحة الكيميائية أكبر تحدٍّ يواجهنا في الشرق الأوسط

التقت «الإنساني» جراح الحروب البارز ماركو بالدان، ذا الخبرة العريضة في معالجة جرحى الحروب، وناقشت معه طبيعة التحديات التي تواجه إسعاف الجرحى وتوفير الرعاية الصحية للمدنيين في بيئة الشرق الأوسط المستَعِرَة بنزاعات تُستخدم فيها أسلحة تُلحق أبلغ الأذى بالمدنيين، كالأسلحة الكيميائية وغيرها.

أمضى جراح الحروب الإيطالي **ماركو بالدان** نحو 17 عامًا في **اللجنة الدولية للصليب الأحمر**، عاصر خلالها نزاعات عسكرية شتى، وعمل في ظروف قاسية، في القارة الأفريقية والشرق الأوسط. كما درب وشارك في تأهيل جراحين من دول مختلفة، منها العراق وليبيا، ليحسن من قدرتهم على الاستجابة للتحديات المتزايدة التي تفرضها النزاعات في بلادهم. والآن يترأس **بالدان** فريقًا من الجراحين، مهمته تدريب وتأهيل جراحي الحرب والعنف واسع النطاق في منطقة الشرق الأوسط.

■ **هل من الممكن أن تخبرنا عن نفسك قليلًا: أين تلقيت تعليمك الجامعي؟ ما التجارب العملية الأولى التي خضتها؟**

أنا إيطالي الجنسية، بدأت مسيرتي الطبية كطبيب متخصص في جراحة الأسنان، وهو مجال دراسة واعد، ومدر للمال آنذاك، أي قبل ثلاثين عامًا. ولكن حدث أن سافرت مع مجموعة من زملائي بالجامعة، كان عمري عشرين عامًا، إلى أوغندا وكينيا. وهناك تعرضت لصدمة ثقافية، ووقعت في حب القارة الأفريقية. وهذا الحب هو ما دفعني إلى اتخاذ قرار بالانتقال للعيش في القارة السمراء. فكرت في أن الناس هناك ليسوا بحاجة إلى أطباء أسنان قدر احتياجهم إلى أطباء في تخصصات أخرى كطب الأطفال والجراحة والصيدلة. ونظرًا لأني قطعت شوطًا كبيرًا في دراسة طب الأسنان، فقد أكملت دراستي الجامعية. بعد ذلك عملت طبيب أسنان كي أكسب المال الكافي لأواصل دراسة الطب. وكان عليَّ أن ألتحق بالخدمة في الجيش الإيطالي (كانت إلزامية آنذاك)، واخترت بدلًا من قضاء عام واحد في الجيش، السفر إلى أفريقيا والمكوث فيها لعامين. كُلفت بالعمل في جوبا بجنوب السودان. ومن هناك واصلت دراسة الطب حتى حصلت على الدرجة العلمية في العام 1992. ظل تركيزي منصبًّا على العودة إلى أفريقيا. تخصصت في مجال الجراحة في العام 1997. وظللت أتردد على أفريقيا في أوقات إجازاتي.

■ **ومتى بدأت التفكير في التخصص في جراحة الحروب؟ هل عملت في هذا الوقت في أي من ميادين القتال في القارة الأفريقية؟**

في البداية عملت في مستشفيات خيرية في أوغندا، وقد تعلمت الكثير حول ما يمكن للطبيب أو الجرَّاح عمله بأقل الوسائل الممكنة. تعلمت الكثير من الإجراءات وأساليب العلاج الطبية خارج نطاق اختصاصي الذي درسته في أوروبا. فتعلمت أشياء عن طب التوليد والأورام والعظام وغيرها من المعارف الطبية. وبالصدفة البحتة، سمعت أثناء زيارة لي إلى إيطاليا أن منظمة إيطالية

اللجنة الدولية، مستندة إلى خبرة تناهز أربعين عامًا،عالجت ما يزيد على مائة ألف مريض في المستشفيات التابعة لها

ICRC

تنزانيا، 2003

غير حكومية بحاجة إلى جراحين للعمل في مناطق حرب. لم أتردد في الالتحاق بها، وذهبت خلال عامي 1998 و1999 إلى العراق وكمبوديا حيث عملت في جراحة الحروب، وهي مهنة تنطوي على تحديات جمَّة. تلقيت بعض التدريب هناك، وتعرفت أثناء عملي مع تلك المنظمة الإيطالية على **اللجنة الدولية**.

■ **متى التحقت بالعمل لدى اللجنة الدولية؟ وهل كانت لديك آنذاك دراية بالأنشطة التي تضطلع بها؟**

كانت البداية في العام 1999، عندما عملت بشكل غير متفرغ. لنقل إذن أنني أعمل في **اللجنة الدولية** منذ 17 عامًا. قبل ذلك كانت شارة الصليب الأحمر بالنسبة إليَّ تعني مجرد مركبات إسعاف وأنشطة تبرع بالدم. فهذه هي الصورة السائدة عن **اللجنة الدولية** في ذهن أي إيطالي. لم أكن أعلم بوجود كيان اسمه **اللجنة الدولية للصليب الأحمر**، أو أن بها وحدة تعمل مع ضحايا الحروب، وهي معلومات اكتسبتها أثناء عملي مع تلك المنظمة الإيطالية. تقدمت للعمل لدى اللجنة الدولية في كانون الثاني/ يناير 1999، والتحقت بالعمل فيها في آب/ أغسطس 1999.

■ **ما البلد الذي عملت فيه؟**

كُلِّفت بالعمل بشكل غير متفرغ في مستشفى **لوكيتشوكيو*** (Lokichogio) في شمال كينيا أثناء النزاع الدائر في السودان. ومنذ بداية تشرين الأول/ أكتوبر 2001، تفرغت للعمل لدى اللجنة الدولية.

■ **كيف تنظر إلى خبرة اللجنة الدولية عمومًا في مجال جراحات الحرب؟ هل شهد اهتمام اللجنة الدولية الخاصة بجراحات الحروب تغيرات أو تحولات؟**

دعنا لا ننسى أننا نتحدث عن أقدم منظمة إنسانية دولية لا تزال قائمة. نحن نتحدث عن أكثر من 150 عامًا من تقديم الرعاية التي بدأت بالجنود الجرحى. في معركة واجه فيها جيش نابليون الثالث جيش النمسا في شمال إيطاليا [موقعة **سولفرينو** في 24 حزيران/ يونيو 1859]، على مقربة من مسقط رأسي. وفي السنوات التالية، ذهب أطباء من اللجنة الدولية إلى أماكن شهدت معارك في القارة الأوروبية، وأيضًا ذهبوا إلى مدينتي **هيروشيما** و**ناغازاكي** اليابانيتين عقب تعرضهما للهجوم النووي. كما كرست اللجنة الدولية على مدار الأربعين عامًا الماضية الكثير من الموارد والوقت لجراحات الحروب على وجه التحديد. والسبب في ذلك أننا أدركنا خلال هذه السنوات أن جراحي الحياة المدنية المتخصصين في علاج الإصابات، ليسوا مدرَّبين على التعامل مع آثار الأعيرة النارية التي تطلقها الأسلحة المتطورة والانفجارات والألغام. فالممارسات التي تدربوا عليها للتعامل مع كسر في العظام ناتج عن حادث مروري لا تنطبق بشكل مباشر على حالات كسور العظام الناجمة عن شظية قنبلة أو رصاصة. ونتيجة لخلو الأدبيات الطبية من محتوى يناسب المجال الذي نعمل فيه، قررت **اللجنة الدولية** أن تعمل على هذا الجانب بأن تنتج مبادئ توجيهية وبروتوكولات ترشد الأطباء والممرضين الذين يواجهون هذا النوع من الإصابات في البلدان التي تنشب فيها حروب. قد تقول إن هذا متوفر، فقط تصفح الإنترنت، سنجد «**الدليل الأمريكي لجراحات الحرب**»، وهناك أيضًا الكثير من المراجع التي صدرت عن أبرز الجيوش. وقد تتساءل: لماذا لا نستعين بهذه المراجع؟ الإجابة ببساطة أن ما تقترحه إصدارات هذه الجيوش، كالجيش الأمريكي وحلف شمال الأطلسي (الناتو) والجيش البريطاني والجيش الفرنسي ليس ممكنًا، من زاوية الموارد والميزانية، بالنسبة للجهات العاملة في الحقل الإنساني كاللجنة الدولية، والزملاء من الأطباء والممرضين العاملين في البلدان المتضررة من الحروب. فمن الناحية العملية، لا يمكننا التفكير في تنفيذ عمليات إخلاء باستخدام الطائرات المروحية، لأنها مكلفة للغاية وغير آمنة. إذ تتطلب حماية المروحية تجهيزًا عسكريًّا كاملًا. لذا علينا إيجاد خيارات أخرى، تكون عملية ومستدامة، للبلدان التي نُكلف بالعمل فيها. وعلينا أيضًا تقديم التوجيه للزملاء المحليين في ضوء محدودية مواردهم المتاحة. وتجلت ثمرة هذا في أن اللجنة الدولية، مستندة إلى خبرة تناهز أربعين عامًا، عالجت ما يزيد على مائة ألف مريض في المستشفيات التابعة لها.

■ **هل يعني هذا أن ما تقدمه اللجنة الدولية في مجال جراحات الحرب فريد ومتميز عما تقدمه الجيوش النظامية؟**

لنقل إن المبادئ الأساسية تظل واحدة، لكن الطريقة التي نعامل بها المرضى تختلف. فنحن لا نمتلك الوسائل المتاحة للجيشين الأميركي

* يقع مستشفى لوكيتشوكيو (Lokichogio) في المدينة التي تحمل الاسم ذاته على الحدود مع دولة جنوب السودان الآن، وهي مقر للعشرات من المنظمات الإغاثية وكذلك مستشفى تديره اللجنة الدولية.

والبريطاني على سبيل المثال. ولا تتوفر لدينا الإمكانات اللوجستية المتوفرة لديهما فيما يتعلق بالطائرات المروحية التي تسعف الجنود في الميدان. إذ بإمكان جيوش دول غربية في عالم اليوم إنقاذ أرواح الجرحى من جنودها المنتشرين في العراق وأفغانستان مثلًا في مدة زمنية تتراوح بين 30 دقيقة وساعة ونصف. فيخضع الجندي المصاب للرعاية على أيدي مجموعة من الأطباء المتخصصين، ويتلقى العلاج اللازم، ثم يُحال، حسب درجة خطورة حالته، إلى مستويات الرعاية المتدرجة في النظام العسكري. أما في حالتنا، فبسبب انعدام الأمان الذي ينتج عنه تأخير في النقل إلى المستشفى، قد يستغرق نقل المريض إلى المستشفى التابع لنا عدة ساعات أو حتى أيام. ولهذا السبب نرى أنماطًا مختلفة من الجروح. وهذه الجروح التي نراها تكون قد تعرضت للتلوث الشديد. فضلًا عن أن المرضى، على اختلاف أعمارهم، لا يكونون قد تلقوا عادة تطعيمات ضد أمراض مثل التيتانوس أو غيره من الأمراض. في حين تحرص الجيوش البارزة على الحفاظ على السلامة البدنية لجنودها الشباب وعلى تحصينهم ضد الأمراض والأوبئة. ولهذه الأسباب نواجه أنماطًا مختلفة من الجروح ومن المرضى، وتتنوع أساليبنا في التعامل معهم. غير أننا نتبادل الخبرات بصورة متكررة مع زملائنا من الأطباء العسكريين والأطباء المدنيين لإيجاد أفضل حلول ممكنة للتعامل مع جرحى الحروب.

■ **سبق لك العمل في كمبوديا في قارة آسيا، وفي أوغندا، وجوبا، والسودان في قارة أفريقيا، وعملت كذلك في بضعة بلدان هنا في الشرق الأوسط. هل يمكنك أن تصف التغيرات التي طرأت على مجال جراحات الحرب عبر سنوات عملك هذه؟**

بالطبع هناك تغيرات عديدة، ولهذا السبب بدأت أشعر أنني أنتمي إلى جيل عفى عليه الزمن. فقبل نحو ثلاثين أو أربعين عامًا، عندما كانت اللجنة الدولية حاضرة في مشهد النزاع الأفغاني، لم يكن بالبلاد سوى بضعة أطباء وممرضين تدربهم اللجنة الدولية. لذا كان النهج الذي اتبعته اللجنة الدولية، والمنظمات الإنسانية الأخرى القليلة العاملة في هذا المجال، هو الاضطلاع بالأنشطة التي لم تكن قائمة هناك. لهذا حاولنا جلب منظومة صحية كاملة إلى أفغانستان لعلاج المرضى. كان بإمكاننا تهيئة البنية التحتية وتجهيز بناية ونجعل منها مستشفى خاصًا بنا. استلزم هذا منّا إحضار أطباء وممرضين، وأخصائيي العلاج الطبيعي، والأدوية، والتقنيات، والمعدات، وكل شيء من الخارج. فالبلد لا يمتلك الموارد أو القدرة على تشغيل هذا كله. أما اليوم، فقد أصبح لدى أفغانستان والكونغو وأوغندا كوادر طبية وكوادر تمريض محلية. هناك إذن انحسار لما نطلق عليه فنيًّا اسم «إحلال المنظومة»، وبات التركيز اليوم منصبًّا أكثر على بناء القدرات وتطوير واستغلال الموارد المتاحة. وهذا يعني أن المنهج الذي تتبعه اللجنة الدولية تغير من جلب كل شيء من الخارج: إنشاء مستشفى خاص بنا وتأهيله بكوادرنا طوال المدة التي نحتاجها، ثم الخروج من البلد وإغلاق كل شيء، إلى تبني منهج جديد يشمل: الذهاب إلى البلد المتضرر من مشكلة ما، وتقييم الوضع، وتحديد الموارد المتاحة، ودراسة نواحي القصور، وهو ما يُعد تحولًا مهمًّا.

خطر الأسلحة الكيميائية دفع اللجنة الدولية إلى إنشاء «وحدة التلوث الناجم عن الأسلحة» لتطوير التعامل مع مصابي هذه الأسلحة

■ **هناك أيضًا تغيرات نجمت عن ظهور أسلحة جديدة على مسرح الحرب في الشرق الأوسط.**

نعم هناك تغيرات طرأت على الحروب. فاليوم ثمة تحدٍّ كبير آخر يواجهنا في منطقة الشرق الأوسط، وهو الحروب غير التقليدية، وبخاصة الأسلحة الكيميائية. ولذا فلا بد لنا من التعامل مع الواقع، هناك أطباء كثيرون ليسوا مدربين على التعامل مع مريض يأتي إليهم في المستشفى وعليه أعراض، أو يقول إنه تسمم جراء تعرضه لعامل كيميائي. هم لم يتلقوا تدريبًا كافيًا على ما ينبغي فعله لإسعاف الشخص الجريح، أو حتى لحماية أنفسهم وهم يسعفون الجريح. ولهذا السبب أنشأت اللجنة الدولية وحدة جديدة تدعى «**وحدة التلوث الناجم عن الأسلحة**»، تضمُّ خبيرًا طبيًّا يعمل على إعداد مبادئ توجيهية وبروتوكولات نسترشد بها في التعامل مع هذا التحدي الكبير الممثل في الأسلحة الكيميائية.

■ **كتبت عام 2004 شعار «الأبسط أفضل»، هل لا يزال هذا الشعار قائمًا في يومنا هذا؟**

بالطبع، ويمثل هذا أيضًا الأساس المنطقي الذي يقوم عليه دليل جراحات الحرب الذي نشرته اللجنة الدولية. يتحدث العنوان الكامل للدليل عن علاج جرحى الحروب في الحالات التي تكون الموارد فيها محدودة. نقدم في هذا الدليل التوجيه للزملاء ليتعرفوا على كيفية علاج الأنواع المعقدة من الإصابات دون وجود جراح الأعصاب، أو جراح الأوعية الدموية، أو جراح الوجه والفكين، ودون توفر تقنيات معقدة مثل أجهزة الأشعة المقطعية، أو الأجهزة والأدوات المستخدمة في كشف ما بداخل الجسم البشري لتحديد موطن الخلل. فبإمكاننا تعليم وتدريب الزملاء على طريقة للعمل في غياب كل هذا.

■ **كُلفت مؤخرًا من قبل اللجنة الدولية بمهمة جديدة في الشرق الأوسط، حدثنا عنها.**

مقر مهمتي الأخيرة هو لبنان، إذ كُلفت أن أترأس مجموعة من الجراحين الموفدين إلى منطقة الشرق الأوسط لتدريب وتأهيل جراحي الحروب في الشرق الأوسط. وتستلزم هذه المهمة أن أسافر كثيرًا إلى دول المنطقة لا سيما سورية، والعراق، واليمن. وهذا شيء أحبه كثيرًا، فأنا إيطالي وأنتمي إلى منطقة حوض البحر المتوسط. بيننا ثقافة مشتركة، ويجمعنا حب الطعام، والمناخ، وحس الدعابة. لكن أكثر ما يعجبني، وما أفتقده في شمال إيطاليا حيث مسقط رأسي، هو روح الضيافة. فإذا ما سافر شخص أجنبي إلى جنوب إيطاليا فإنه يكون مثار فضول سكان المنطقة، ويبادرونه بالسؤال: من أين أتيت؟ حدثنا عن نفسك، ما رأيك في أن تتناول فنجانًا من القهوة معنا؟ أما أهل الشمال، فهم ينظرون إلى أي أجنبي على أنه مصدر للمتاعب. لذا فهم يميلون إلى الإبقاء على مسافة بينهم وبين الأجانب. أستمتع كثيرًا بالحفاوة وكرم الضيافة التي ألقاها أثناء إقامتي في بيروت، وهي الروح التي أجدها كلما ذهبت إلى القاهرة، أو دمشق، أو بغداد، أو صنعاء، وبالطبع هذا يدخل السرور على قلبي.

■ **هناك سؤال يطرح نفسه عنك كطبيب، كيف تتكيف مع هذا الكم من المآسي؟**

تعرضت لأنواع مختلفة من الضغوط النفسية منذ أن بدأت العمل في مجال جراحة الحروب. الصعوبات النفسية حاضرة دائمًا. فمثلًا، كُلفت بالعمل في غزة في العام 2009، بعد نحو أسبوعين من اندلاع النزاع في عملية «الرصاص المصبوب». ومع أنني لست حديث عهد بهذه المواقف، والتعامل مع جرحى الحروب، إلا أنني تعرضت لضغط نفسي هائل سلبني القدرة على النوم لأسبوعين كاملين بعد عودتي إلى موطني. كنَّا نعمل في «**مستشفى الشفاء**»، المركز الرئيسي للتعامل مع الإصابات في **قطاع غزة**. ولا أستطيع أن أصف حجم الضغط النفسي الذي تعرضنا له نحن الأطباء، ولا بشاعة ما رأيناه. كنا نعمل مع موظفين فلسطينيين، والفلسطينيون شعب عاطفي بطبيعته، فهم لا يتحدثون بنغمة صوت طبيعية، بل يصرخون. فيحدث مثلًا وسط أجواء النزاع أن يأتي مصاب إلى المستشفى يرافقه عشرة من أقاربه، يهرعون إلى غرفة الطوارئ وسط صياح الجميع. ثم تتوالى الأحداث الدرامية، ونرى العديد من المشاهد القاسية التي يصعب تصديقها، ولا يمكن بالطبع روايتها، إذ ينبغي ألا يفصح المرء عن هذه الأمور. وبمجرد مغادرتي غزة أدركت قسوة ما مررت به ■

ريتا نياغا*

يعاني الصومال من اضطراب الأحوال المناخية وتأثيرها السلبي على نهر شبيلي الذي يعبر مناطق بوسط وجنوب البلاد، فقد يحدث أن يجف النهر وينضب ماؤه، قبل أن يفيض بالماء مرة أخرى. ومع التكلفة الإنسانية الكبيرة لهذه التحولات المناخية، تحاول النساء في مدينة صغيرة مقاومة الظروف القاسية، والتأقلم وإبداع طرق للحياة ومواصلة العيش والكفاح.

في حزيران/ يونيو من العام الماضي، شهدت مدينة **بلدوين**، رابع أكبر مدن الصومال، أحد أسوأ الفيضانات منذ عقود، إذ أسفر عن نزوح عشرات الآلاف من السكان، بعد أن فاض نهر **شبيلي**، الذي يمر عبر المدينة، بسبب الأمطار الموسمية الغزيرة. وأجبر هذا السكان على الانتقال إلى مناطق أكثر ارتفاعًا بعد أن غمرت المياه المدينة. مرَّ شهران على الفيضان وأصبح مجرد ذكرى بعيدة. فقد عاد نهر الحياة إلى مجراه الطبيعي كما نهر **شبيلي**، الذي يتدفق عبر المدينة في نعومة، ويعبر الناس بين ضفتيه إما مستخدمين الجسر أو القوارب التقليدية الصغيرة.

يذهب التلاميذ إلى مدارسهم كل صباح حاملين كتبهم الدراسية، الأولاد في السراويل السوداء والقمصان البيضاء،

★ موظفة في قسم الإعلام ببعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الصومال.
★★ سعدية – استُخدم اسم مُستعار لحماية هويتها.

الصومال: نسائم أمل تهبُّ على سوق تعاني أوضاعًا مالية صعبة

والفتيات في حجابهن الأصفر الفاتح. لا يمكن لعين أن تُخطئهم ولو من مسافة بعيدة. وعلى الطريق الرئيس، الذي عُبِّد بالأسفلت قبل أكثر من 20 عامًا، يجلس الرجال أمام المقاهي يتجاذبون أطراف الحديث. إذا مررت بسوق **داراويشتا** في **بلدوين**، لا تلبث أن تتسلل إلى أنفك رائحة الخضراوات الطازجة، التي تجعلك تتوق إلى تذوقها. في هذه السوق تُفتح الأكشاك في ساعة مبكرة، بحلول السادسة صباحًا. وجد التجار، ومعظمهم من النساء، في هذه المدينة ملاذًا آمنًا من ويلات النزاع المسلح، والخطر المحدق على مشارفها.

قصص معظمهنَّ متشابهة: الكثير منهنَّ فقدن أزواجهن في خضم النزاع الطويل، وأصبحن الآن العائل الوحيد لأسرهن. وبعد أن استقرت بِهنَّ الحال باللجوء إلى **بلدوين**، أصبح لزامًا عليهن سداد إيجار السكن الذي تقمن فيه مع أسرهن، ولذا توجهن لفتح مشاريع خاصة بهن لكسب قوتِهِنَّ. واليوم تتنوع مجالات تجارتهن بين الفحم النباتي والخضراوات وحطب الوقود واللحم.

تقوم معاملات السوق في **بلدوين**، التي تفتقر لأي مؤسسات مالية، على نظام التعامل بالأجل، يشتري البائع بضاعته بالأجل، ويسدد الزبائن ثمن البضائع بالأجل أيضًا. وللتغلب على المشاكل المتعلقة بالتدفق النقدي، تُشكِّل مجموعات تضم كل مجموعة نحو 10 نسوة، يساهمن بمبلغ من المال ويدفعنه إلى أحد أفراد المجموعة كل أسبوع بالتناوب، فتحصل إحداهن على المال في كل مرة.

تستأجر **سعدية أحمد** أحد الأكشاك في السوق، ونظرًا لكونها العائل الوحيد لأسرتها، قد تُضطر إلى فتح الكشك لبضع ساعات، ثم تغلقه لتعود إلى المنزل كي تطهو الطعام لأبنائها. وإذا حدث أن مرض أحدهم، فيتعين عليها البقاء إلى جواره في المستشفى. هذه فقط لمحة عن التحديات التي تواجهها النسوة هنا.

خلف وجوههن التي تعلوها ابتسامات ودودة، تتوارى تلال من المشاكل العائلية والمالية التي يواجهنها جميعًا. ترقب في ثنايا ضحكاتهن الصافية أملًا في أن يُخيِّم السلام من جديد على الصومال. وتحدوهن ثقة أن مستقبلًا أفضل وأكثر إشراقًا ينتظرهن، وينتظر أبناءهن وتجارتهن ■

تنفذ اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الصومال برامج لبناء القدرة على الصمود تساعد النساء العاملات كسعدية. تخضع أفقر النساء العاملات – اللائي يجري انتقاؤهن وفق معايير وُضعت بمساعدة جمعية الهلال الأحمر الصومالي – لتدريب مدته يومان يتعلمن فيه مهارات إدارة الأعمال. ثم يحصلن على منحة نقدية تؤهلهن لبدء مشروع جديد أو التوسع في مشروع قائم. وفي عام 2016، استفاد من هذا البرنامج أكثر من 1,500 امرأة. مع ارتفاع دخولهنَّ، تستطيع هؤلاء النسوة تأمين أكثر من وجبة واحدة في اليوم لأسرهنَّ وسداد النفقات المنزلية الأخرى.

يئن إقليم حوض بحيرة تشاد تحت وطأة أزمة إنسانية طاحنة، تُعد إحدى أكبر الأزمات الإنسانية في عالم اليوم، إذ فرَّ أكثر من مليونين ونصف المليون شخص من ديارهم بفعل النزاع الدامي في المنطقة مترامية الأطراف، فيما تقول اللجنة الدولية إن هناك أكثر من 9 ملايين شخص في حاجة ماسة إلى المساعدة

حدود لا تكبح النزاع: ملايين حول بحيرة تشاد يئنون تحت وطأة أزمة إنسانية عنيفة

تستحق المعاناة الإنسانية في محيط **بحيرة تشاد** أن توصف بأنها أبرز الأزمات الإنسانية المنسية بحق. فحجم الاهتمام العالمي والإقليمي لا يتناسب مع المعاناة المهولة التي يرزح تحتها أكثر من 9 ملايين شخص. وهؤلاء المدنيون، بينهم قرابة مليونين ونصف المليون لاجئ، في حاجة عاجلة إلى الدعم، وفيهم أطفال ومرضى في أمس الحاجة إلى «المساعدات المنقذة للحياة».

ويمثل إقليم **بحيرة تشاد**، حيث تلتقي حدود أربع دول: النيجر ونيجيريا والكاميرون وتشاد، واحدًا من أفقر الأقاليم في العالم، بفعل التدهور البيئي الكبير الذي ضرب البحيرة، التي كانت يومًا من أكبر بحيرات العالم مساحة. فبسبب زيادة معدلات التصحر وموجات الجفاف التي ضربت إقليم الساحل الأفريقي الغربي، تقلصت مساحة البحيرة من 25 ألف كيلومتر مربع في العام 1963، إلى أقل من ألف وخمسمائة كيلومتر حاليًا، حسبما تقول مؤسسات معنية بالبيئة. ولطالما كانت البحيرة المصدر الرئيس للمياه العذبة الضرورية لمشروعات الري والزراعة في المنطقة، علاوة على ثروة حيوانية مزدهرة من الأبقار والجمال في الأيام الخوالي.

نزاع مسلح وفقر مدقع

على مدى السنوات الماضية، أدت الغارات العنيفة التي شنتها الجماعات المسلحة في منطقة بحيرة تشاد إلى إجبار ملايين السكان على الفرار من ديارهم. وجد بعض الأهالي ملاذًا في مدن وبلدات نيجيرية، في حين عبر آلاف آخرون إلى دول الجوار الفقيرة: الكاميرون وتشاد والنيجر، ما أدى إلى اتساع نطاق الأزمة لتأخذ طابعًا إقليميًّا. وفي أتون معارك الكر والفر بين الجماعات المسلحة والجيوش النظامية لهذه الدول، لقي عشرات الآلاف حتفهم، وأصيبت أعداد هائلة أخرى، ودُمّرت العديد من المُستشفيات والمدارس والبنى الأساسية. ووصل انعدام الأمن الغذائي وسوء التغذية إلى مستويات حرجة. كما مُزِّقت أوصال آلاف الأسر، وانفصل أطفال عن ذويهم.

وبدأت الموجة الحالية من النزاع قبل ست سنوات، عندما دخلت حركة «**بوكو حرام**» في مواجهة مسلحة مع الحكومة النيجيرية. ومنذ العام 2014، اشتدت ضراوة النزاع عندما سيطرت الحركة على مساحة شاسعة من الأرض في شمالي نيجيريا. ومنذ العام الماضي، تقول الحكومة في أبوجا إنها استعادت مساحات واسعة من الحركة، بدعم من دول الجوار تشاد والكاميرون والنيجر. وللطبيعة الجغرافية للإقليم دور كبير جعل النزاع أكثر دموية. إذ تتميز

نساء ينتظرن المواد الغذائية التي توزعها اللجنة الدولية على النازحين في مخيم مدينة مايدوغوري في شمال شرق نيجيريا.

بحيرة تشاد بوجود جزر تتراوح في مساحاتها، في منطقة مستنقعات كثيفة. وتمثل هذه الجزر قاعدة مثالية لبعض مئات من المسلحين لشن هجمات مفاجئة على الدول المطلة على البحيرة. من ناحية أخرى، يستخدم المسلحون **غابة سامبيسا** (Sambisa Forest) مترامية الأطراف في شمال نيجيريا، والمتاخمة للبحيرة، مكانًا أثيرًا للاختباء بعد شن الهجمات القاتلة.

وللمواجهات العنيفة ومعارك من كر وفر بين جيوش نظامية لأربع دول ضد **بوكو حرام**، أثره الوخيم على المدنيين. وقد أصبحت مدن مثل **مايدوغوري** (Maiduguri) **ويولا** (Yola) **وغومبي** (Gombe) وغيرها من المدن والبلدات الواقعة في شمال شرق نيجيريا، بعد عدة أشهر من النزاع، ملاذًا لمئات الآلاف من النازحين بسبب العنف. وتقول تقديرات إن **مايدوغوري**، البالغ عدد سكانها مليون نسمة، أصبحت تستضيف منذ العام الماضي قرابة مليون نازح. ولم تشفع أزمة النزوح العميقة للمدينة، إذ فُرض عليها حصار خانق بفعل النزاع المسلح. وقد أدى العنف الذي شهدته مدينة باغا (Baga) الواقعة في شمال شرق البلاد، إلى سقوط أرواح وإصابة آلاف، علاوة على إجبار آلاف السكان إلى الفرار خوفًا على حياتهم عبر بحيرة تشاد.

ويقيم بعض هؤلاء النازحين واللاجئين في المدارس والمباني الحكومية والمخيمات الموجودة في تلك المناطق، بينما يقيم آخرون مع أقاربهم أو لدى عائلات مضيفة، ممَّا يؤدي إلى إلقاء المزيد من الأعباء على كاهل المجتمعات المحلية الفقيرة أصلًا. وتجد المجتمعات المحلية - التي تكافح بالفعل تحت وطأة المصاعب الاقتصادية وموجات الجفاف - صعوبة في التأقلم مع الوضع. فقد انهارت التجارة عبر الحدود مع نيجيريا، وانخفض الإنتاج الزراعي بعد أن أُجبِرت العائلات على الفرار بحثًا عن الأمان.

ICRC

خلال النصف الأول من العام 2016، قدمت اللجنة الدولية مواد غذائية على أكثر من نصف مليون لاجئ

جهود اللجنة الدولية

دخلت اللجنة الدولية في سباق مع الزمن للتصدي لتحديات الأزمة الإنسانية الطارئة في بحيرة تشاد، فخصصت أموالًا عاجلة، لتصبح بذلك ثالث أكبر مهمة إنسانية للجنة الدولية في العالم بعد سورية وجنوب السودان. وحاولت اللجنة الدولية لفت انتباه العالم إلى عمق المأساة، فزار رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر **بيتر ماورير** المنطقة في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، للتعرف عن كثب على الوضع الإنساني. كما رفعت المخصصات لهذه المنطقة لتصل إلى 136 مليون فرنك سويسري في العام 2016. ونفذت اللجنة الدولية أنشطة إنسانية واسعة النطاق في مختلف أنحاء منطقة بحيرة تشاد، بالتعاون مع **جمعية الصليب الأحمر النيجيري. وتضمُّ** الاحتياجات الأكثر إلحاحًا في النيجر وتشاد والكاميرون المواد الغذائية والمياه والمأوى والرعاية الصحية وجمع شمل العائلات التي شتتها النزاع. ومن الأنشطة التي تضطلع بها اللجنة الدولية: تزويد المستشفيات بما يلزم من مواد ومعدات لمواجهة تدفق الجرحى إثر وقوع أي اعتداء، وضمان توفير إمكانية إجراء العمليات الجراحية العاجلة للنازحين بالمجان في مستشفى **مايدوغوري** التخصصي الحكومي، وتحديث المرافق الصحية في شمال نيجيريا، وتدريب الأطقم الطبية المحلية على إدارة حالات الإصابات الجماعية وعلاج المصابين بسبب الأسلحة.

وخلال النصف الأول من العام 2016، قدمت اللجنة الدولية مواد غذائية على أكثر من نصف مليون لاجئ. كما دشنت اللجنة الدولية برنامج دعم اقتصادي لعدد من السكان في المنطقة المنكوبة. فبفضل برامج تلبية الاحتياجات المحددة لمربي الماشية، تسنى إجراء تلقيح مجاني لأكثر من مليون رأس ماشية تعتبر مصدر رزق السكان الرئيس. ومن البرامج أيضًا ما يستهدف أرامل الأزواج الذين لقوا حتفهم جرّاء النزاع. فهناك ما يزيد على سبعة آلاف أرملة مسجلة لدى جمعية الأرامل المسيحيات والمسلمات. وقد أثمر التعاون بين جمعية الأرامل **بولاية بورنو** واللجنة الدولية عن تمكين الأرامل من شراء المزيد من الغذاء، وتقليص ديونهنّ، ومنحهن مبالغ مالية لبدء مشروعاتهنّ الخاصة الصغيرة. وهناك مشاريع أخرى قيد الإنجاز لتحسين الحصول على مياه الشرب في المناطق التي زاد فيها عدد السكان عشرات الأضعاف، وفيها يمثل الحصول على المياه النظيفة تحديًا حقيقيًّا. وأخيرًا، تزور اللجنة الدولية العديد من مئات الأشخاص المحتجزين في سياق النزاع بغية رصد المعاملة التي يلقونها وظروف احتجازهم ■

تضحيات بشرية غير مبررة في حروب الشرق الأوسط

عمر مكي*

المدنيون ضحايا تأويلات مغلوطة وانتهازية لقانون الحرب:

في نزاعات الشرق الأوسط الحالية، تضرب كثيرٌ من الأطراف المتحاربة بالقانون الدولي الإنساني عُرض الحائط، فثمة انتهازية أحيانًا في تطبيق قواعد القانون، وثمة تخبط في تمييز المقاتلين عن المدنيين، وأخيرًا هناك من ينظر للقانون الدولي على أنه أداة استعمارية تفرضها الدول الغربية للسيطرة على البلدان المسلمة

REUTERS

ليبيا، 2016

هناك العديد من التحديات العملية التي تواجه احترام القانون من جانب جميع الأطراف. وأهم تحدٍّ يواجه المدنيين أثناء النزاعات المسلحة هو طبيعة مسرح العمليات العسكرية الراهن في الشرق الأوسط التي تدور رحاها وسط المدن. ففي هذا النوع من الحروب، يتفاقم تأثير القصف المدفعي والجوي للأهداف العسكرية الموجودة في المدن تفاقمًا واضحًا بسبب قرب هذه الأهداف من السكان المدنيين والأعيان المدنية. وكذلك، لما كانت أغلب النزاعات في الشرق الأوسط اليوم ذات طبيعة غير متكافئة، بما تحمله من تباينات شاسعة بين القدرات العسكرية للأطراف المتحاربة، فإن هذا يعني أن الطرف الأضعف سيبذل كل ما في استطاعته لتجنب القوة العسكرية للعدو. وقد تتضمن هذه التكتيكات اندساس المقاتلين والأهداف العسكرية وسط السكان المدنيين والأعيان المدنية، واستخدام المدنيين كدروع بشرية. وتؤدي هذه الممارسات بوضوح إلى زيادة مخاطر وقوع ضحايا بين السكان المدنيين.

بالإضافة إلى ذلك، هناك تخبط وشك في كيفية تمييز المقاتلين عن المدنيين جراء عدة عوامل، مثل عدم وضوح التمييز بين المهام المدنية والعسكرية، واندساس العناصر المسلحة ضمن السكان المدنيين، والتنوع الواسع للمهام والأنشطة التي يؤديها المدنيون في النزاعات المسلحة المعاصرة، وكذلك تعقد وسائل وأساليب القتال الحديثة. وتصل هذه التحديات إلى ذروتها عندما لا تميز العناصر المسلحة نفسها عن السكان المدنيين كما يحدث أثناء مباشرة العمليات العسكرية الخفية أو عندما يمارس السكان نشاطهم كمزارعين نهارًا ومقاتلين ليلًا. ونتيجة لهذا، تزداد احتمالات وقوع المدنيين ضحايا للاستهداف الخاطئ أو المتعمد.

أزمة تطبيق

أدى هذا التطور في طبيعة النزاع المسلح إلى فتح المجال أمام الكثير من التفسيرات الخاطئة، والانتهازية في بعض الأحيان، لقوانين الحرب سواء من جانب الدول أو الجماعات المسلحة غير التابعة لدولة معينة. وتعمد كثير من الأطراف المتحاربة اليوم إلى انتهاج التخفيف أو التشدد في تفسير وتأويل بعض المفاهيم القانونية بما يتفق وأهدافها السياسية من أجل إضفاء الشرعية على أسلوب سير العمليات العدائية. ومن الأمثلة على هذا، التأويل غير الدقيق لمفهوم «المشاركة المباشرة في العمليات العدائية» من جانب الدول المختلفة وبعض الجماعات المسلحة في الشرق الأوسط.

وللأسف، عندما يظهر هذا التأويل المغلوط، فإن تأثيره نادرًا ما يقتصر على الطرف المعادي.

سوريا، 2016

النزوح الداخلي بفعل القتال واحدة من الأزمات الإنسانية في الشرق الأوسط. اضغط هنا لمشاهدة فيديو توضيحي عن المدنيين الفارين من القتال في الموصل. استخدم تطبيق ماسح الباركود هنا (Barcode Scanner)

* المستشار الإقليمي لشؤون القانون الدولي الإنساني في اللجنة الدولية– الكويت.

فغالبًا ما يكون الأمر مجرد مسألة وقت، حتى يتعرض السكان المدنيون لدى الطرف الأول للآثار الفظيعة للتأويل المغلوط المتبادل من جانب الخصم. أضف إلى ذلك أن الجهل الصارخ بالقانون في الشرق الأوسط يعرقل بوضوح أي جهود رامية إلى احترام القانون وتنظيم سلوك الأطراف المتحاربة. ويزداد الأمر تعقيدًا بإخفاق المجتمع الدولي في صياغة أي قانون يتعلق بآلية تنفيذ أو إنفاذ، اللهم إلا المحكمة الجنائية الدولية التي تبدو عاجزة عجزًا بينًا في هذه البقعة من العالم.

ومن المهم أيضًا الإشارة إلى أن العديد من الجماعات المسلحة في الشرق الأوسط تنظر إلى القانون الدولي على أنه أداة استعمارية تفرضها الدول الغربية للسيطرة على البلدان المسلمة أو غير الغربية وترى في تفسيراتها الخاصة للتشريعات الدينية الإطار الوحيد الملزم لأسلوب إدارتهم للعمليات العدائية.

ومن الشائع للغاية في الوقت ذاته أن ترفض بعض الدول انطباق القانون لأسباب متعددة. منها على سبيل المثال أنها قد لا توافق على تصنيف حالة معينة على أنها نزاع مسلح، إذ إن القانون الدولي الإنساني لا ينطبق إلا في زمن النزاع المسلح. وقد تدعي بدلًا من ذلك أنها حالة توتر داخلي أو «أنشطة إرهابية» لا ترقى إلى حالة نزاع مسلح غير دولي. والمبرر في ذلك أن الاعتراف بحدوث مثل هذا النزاع المسلح من شأنه، من وجهة نظر بعض الدول، أن يمنح شرعية ضمنية للجماعة المسلحة. وبالعكس، فإن عدم تصنيف حالة معينة على أنها نزاع مسلح من شأنه أن يسمح للدول بتطبيق أطر قانونية أخرى مفضلة لديها، بما في ذلك تشريعات ما يسمى بـ «مكافحة الإرهاب».

لغة مشتركة

من الواضح لمن لديه معرفة كافية بالسياسة الشرق أوسطية أن قوانين الحرب لا يمكن تطبيقها ببساطة في صورتها المتكاملة «المعدة مسبقًا» على الدول أو الجماعات المسلحة غير التابعة لدولة معينة. وهناك ضرورة مستمرة لإعادة تقييم فاعلية القواعد الحالية لحماية السكان المدنيين والأعيان المدنية وتجنب الإقصاء في التطبيق وتحسين تنفيذ تلك القواعد أو إزالة الغموض عن تفسير مفاهيم معينة تستند إليها القواعد. كما أن التعريف بالقانون، يجب مواءمته استراتيجيًا حتى يناسب طبيعة النزاعات ومصالح الأطراف ودوافعها وأيدولوجياتها. ويتعين على الأطراف المتحاربة أن تفهم أولًا لماذا يكون من الأفضل لها أن تتقيد بهذه القوانين، من خلال مخاطبة مصالحها، سواء كانت ميزة عسكرية أو احترامًا متبادلًا أو حصانات أو التزامًا بقيم ثقافية أو دينية تتماشى مع قوانين الحرب. ويجب تيسير المناقشات والمفاوضات أيضًا من خلال وسائل اتصال فعالة تجد صداها لدى جميع الأطراف ■

هناك جماعات مسلحة في الشرق الأوسط تنظر إلى القانون الدولي على أنه أداة استعمارية تفرضها الدول الغربية للسيطرة على البلدان النامية

بعض الدول لا توافق على تصنيف حالة معينة على أنها نزاع مسلح، وتدعي أنها حالة توتر داخلي أو «أنشطة إرهابية» لا ترقى إلى نزاع مسلح غير دولي

REUTERS

سوريا، 2016

REUTERS

عدنان حزام*

علي الحليلي من اليمن يتحدث عن عمله

نلتقي في هذا الحوار مع **علي الحليلي**، وهو سائق، ويُعد من أقدم الموظفين في بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في صنعاء. فهو يعمل هناك منذ أكثر من 15 عامًا، عاصر خلالها أزمات عدة حلت ببلاده اليمن.

«يوم في حياة اللجنة الدولية للصليب الأحمر» هي سلسلة حوارات مع العاملين في بعثات اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول العالم. نتعرف فيها عن قرب على ظروف العمل الإنساني في أماكن مختلفة من العالم، والتحديات التي يواجهها العاملون في اللجنة الدولية.

■ حدثنا عن نفسك قليلًا.

اسمي **علي حمود أحمد الحليلي**. أبلغ من العمر 36 عامًا. ترعرعت في مدينة **صنعاء**. ولديَّ أسرة مكونة من زوجة وثلاثة أولاد. أعمل سائقًا في بعثة **اللجنة الدولية** في **صنعاء**. بدأت العمل في العام 2001، بأجر يومي، ثم تحولت إلى عقد دائم في العام التالي. قبل التحاقي بالعمل في **اللجنة الدولية**، كنت أعمل سائق تاكسي، خاصة في قطاع السياحة. تحملت مسؤولية الإنفاق على أسرتي بعد وفاة والدي. وكنت قد تعرفت على مندوب **باللجنة الدولية**، وتقدمت إليه بطلب للعمل في اللجنة الدولية. وكانت هذه هي البداية.

■ هل كنت تعرف طبيعة العمل الذي تؤديه اللجنة الدولية قبل التحاقك بها؟

لا لم أكن أعرف. لكني عرفت لاحقًا ما تفعله المنظمة، والمساعدات التي تقدمها للبلاد، وهو ما زاد إعجابي بها. وخلال هذه السنوات، عرفت الكثير عن اللجنة الدولية وتاريخها في اليمن.

■ مثل ماذا؟

قبل سنوات كنت في عمل ميداني في مدينة **حوث**، وحدث أن قابلت شخصًا كبيرًا في السن. كان الرجل يعرف اللجنة الدولية حق المعرفة، وكان ينطق اسمها باللغة الإنجليزية بطلاقة. أخبرني الرجل أنه عمل مع اللجنة الدولية في الستينيات. وذكر بعض أسماء الموظفين الأجانب. وحكى لي عن صعوبة عملهم في ذلك الوقت البعيد، حتى إنهم كانوا في بعض المناطق الجبلية الوعرة يستخدمون الحمير لنقل الأطباء والمعدات الطبية.

■ كيف هي الحياة في صنعاء؟ ومنذ متى وأنت تعمل فيها؟

تتمتع صنعاء ذات التراث العريق بجو خلاب، وتكثر فيها المعالم الحضارية. جذبت صنعاء السياح، وازدهر النشاط السياحي مع تدفق السياح، وهو ما دفع بعضًا من سكانها للعمل في مجال السياحة، قبل أن يتدهور الوضع بفعل النزاعات المسلحة. لقد ولدت في هذه المدينة الرائعة. وبدأت العمل في السياحة في سن التاسعة عشرة، قبل أن ألتحق بعد ذلك باللجنة الدولية.

■ ما أكثر مسألة إنسانية أثرت فيك في اليمن؟

بصراحة، يؤثر فيَّ بشدة ما يحدث الآن لوطني الغالي من قتل للنساء والأطفال والرجال، وتدمير كل ما هو جميل في بلدي الحبيب.

■ ما أكثر تجربة رسخت في ذهنك خلال عملك مع اللجنة الدولية؟

موقف حدث في العام 2015 عندما ذهبنا في مهمة توزيع مواد غذائية في قريتي **العشة** و**القفلة** بمحافظة **عمران**. بعد أن أنهينا التوزيع في قرية **القفلة** توجهت إلى قرية **العشة**. وقبل وصولنا بدقائق معدودة، جرى استهداف المدرسة التي سَتُوزع المواد الغذائية فيها. لما وصلنا إلى القرية، رأيت ما أوجع قلبي. رأيت مصابين وجرحى على الأرض. حاول البعض الركض بعيدًا طلبًا للنجاة. رأيت أطفالًا ونساءً ورجالًا بانتظار المساعدات التي ستقدمها اللجنة الدولية. قررنا الرجوع لنبحث عن طريق آخر آمن. نزلنا من السيارة، وما هي إلا لحظات حتى سمعنا الغارة الثانية على القرية نفسها. كان موقفًا صعبًا، وهو أكثر موقف خالد في ذهني.

■ ما أهم درس تعلمته بصفتك عاملًا في المجال الإنساني؟

أن أقوم بعملي على أكمل وجه وأجتهد ولا أنتظر الشكر من أحد.

■ ما أكثر شيء تستمتع به في عملك؟

أستمتع بتنقلي بين محافظات اليمن الرائعة. ويغمرني أجمل شعور عندما نقدم المساعدة للغير. وتكتمل سعادتي عندما ننهي عملنا كما خططنا له، وهذا يعود للعمل الجماعي لموظفي اللجنة الدولية. أستمتع كذلك بالتعرف على الكثير من موظفي اللجنة الدولية الذين يأتون لليمن سواء من العرب أو الأجانب.

* مسؤول إعلام ونشر ببعثة اللجنة الدولية في اليمن

كتاب

مقدمة شاملة في القانون الدولي الإنساني لـ نيلز ميلتسر

نقدم في هذا الباب عرضًا لكتاب مهم في قضايا العمل الإنساني من مختلف أوجهها: القانونية والسياسية والثقافية.

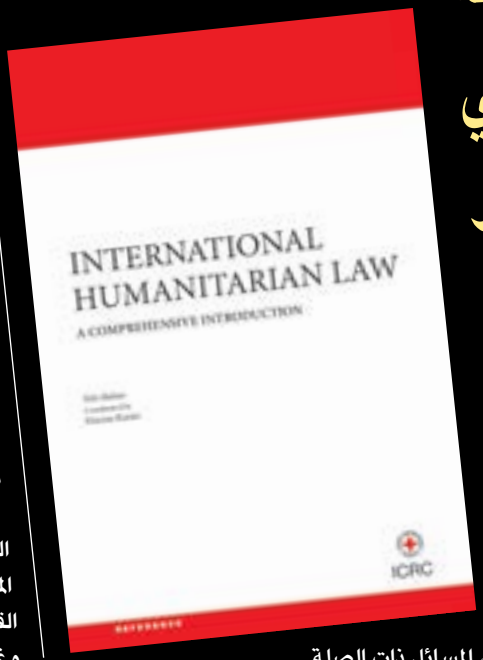

أصدرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر كتابًا مرجعيًا حول القانون الدولي الإنساني، يمثل نقلة نوعية في المؤلفات التي تتناول قوانين الحرب وتطبيقاتها والتحديات التي تواجهها. يغطي الكتاب (360 صفحة)، مختلف جوانب القانون الدولي الإنساني، وقد صيغ بأسلوب عملي وبسيط وموجز وجذاب يتفق ووجهة النظر القانونية للجنة الدولية.

الكتاب الذي يحمل عنوان «القانون الدولي الإنساني: مقدمة شاملة» (International Humanitarian Law: A Comprehensive Introduction)، من تأليف نيلز ميلتسر (Nils Melzer)، أستاذ كرسي حقوق الإنسان بـ أكاديمية جنيف للقانون الدولي الإنساني وحقوق الإنسان. وسبق لـ ميلتسر أن عمل لسنوات في اللجنة الدولية، وتبوأ عدة مناصب منها المستشار القانوني لها.

ويتألف «القانون الدولي الإنساني»، أو «قانون الحرب» أو «قانون النزاعات المسلحة»، من مجموعة من القواعد التي تهدف إلى الحد من آثار النزاعات المسلحة. ويحمي القانون الدولي الإنساني الأشخاص الذين لا يشاركون أو توقفوا عن المشاركة في الأعمال العدائية. وهو يقيد وسائل وأساليب الحرب. ويأتي نشر الكتاب في إطار مهمة اللجنة الدولية في نشر وتعزيز المعرفة بقانون النزاعات المسلحة، وتعد هذه من بين المهام الأساسية التي تضطلع بها اللجنة الدولية.

يستعرض الكتاب مختلف القضايا المعاصرة ذات الصلة بقانون النزاعات المسلحة، ويقدم المعلومات والأفكار والحقائق بطرق ميسرة، ما يجعله مرجعًا ومرشدًا فريدًا لكل من يتناول بعض المسائل ذات الصلة بالقانون الدولي الإنساني. فهو يوفر توجيهات لأي شخص يتعاطى للمرة الأولى مع القانون الدولي الإنساني، ويود معرفة المزيد عن المسائل ذات الصلة بالنزاعات. كما يلبي احتياجات الممارسين من ذوي الخبرة. كما يخاطب قطاعات واسعة من الأكاديميين والعسكريين والعاملين في المجال الإنساني والإعلاميين.

أسباب نشر هذا الدليل

نشر «معهد هنري دونان» (Henry Dunant Institute) بدعم من اللجنة الدولية في العام 1993، كتابًا موجزًا هو «القانون الدولي الإنساني: مقدمة»، كتبه هانز- بيتر غاسر (Hans-Peter Gasser)، رئيس الشعبة القانونية في اللجنة الدولية آنذاك. ظل هذا الدليل محل إعجاب واسع لإيجازه ولعرضه العملي لقانون الحرب. إلا أن طبيعة النزاعات المسلحة قد تغيرت خلال العشرين عامًا التي تلت نشره، وتطورت خلالها الممارسات في مجال القانون الدولي الإنساني بشكل كبير. لذا ظهرت حاجة ماسة لكتاب مرجعي جديد يأخذ هذه التطورات بعين الاعتبار. وعليه طلبت اللجنة الدولية من نيلز ميلتسر صياغة هذا الدليل المعنون «القانون الدولي الإنساني: مقدمة شاملة».

أوجه اختلاف

علاوة على المضمون المميز بالشرح والتحليل لقضايا قانون الحرب، يتميز هذا الكتاب عن غيره من المصادر التي تتناول القانون الدولي الإنساني في أنه يعرض المعلومات عرضًا جذابًا، بهدف تيسير وصوله إلى طائفة عريضة من الجمهور العام. والهدف النهائي المنشود هو إيصال رسالة مفادها أن مسألة احترام القانون الدولي الإنساني لا تشكل للمتضررين من النزاعات المسلحة مجرد مسألة قانونية مجردة، وإنما تعني في كثير من الأحيان الفرق بين الحياة والموت والسلامة والخطر والكرامة وفقدان الأمل. من سمات هذا الكتاب:

اختصار الهوامش وتقديمها بصورة موجزة، كما أنها تحيل القراء إلى أحكام قانونية في المعاهدات والقانون العرفي.

يبدأ كل فصل بجزء أُطلق عليه «بإيجاز» (In a nutshell) وهو يحوي المعلومات المهمة التي ينبغي معرفتها.

يوجد في كل جزء من أجزاء الكتاب، قسم «للحصول على المزيد» (To go further)، يحيل القراء إلى موارد أخرى، قانونية وغير قانونية، مثل مراجع ووثائق ووسائط إلكترونية، وأفلام وصور من الميدان صادرة عن اللجنة الدولية.

فهرس شامل لمحتويات الكتاب لتمكين القراء من العثور على الأجزاء التي يرغبون في الاطلاع عليها بسهولة ويسر.

نسخة إلكترونية من الدليل مصممة بـصيغة «بي. دي. إف» (.pdf)، يمكن تحميلها مجانًا عبر المتجر الإلكتروني للجنة الدولية، مع وصلات يمكن النقر عليها، ما ييسر الوصول إلى العديد من الوثائق والموارد المذكورة.

المواد البصرية في الكتاب

يحتوي الدليل على طائفة متنوعة من الصور الفوتوغرافية. فثمة حاجة اليوم وأكثر من أي وقت مضى إلى أن تتناول دراسة القانون الدولي الإنساني ليس فقط القواعد القانونية المجردة، وإنما أيضًا القضايا الإنسانية الأكثر إلحاحًا الناتجة عن النزاعات المسلحة المعاصرة. ويستخدم الكتاب الصور الفوتوغرافية لمساعدة القارئ على تصور الطريقة التي يكفل القانون الدولي الإنساني بها الحماية للمدنيين في النزاعات المسلحة المعاصرة، وكذلك العواقب الوخيمة التي تسفر عن انتهاكه. فمن خلال ما يحتويه الدليل من صور وروابط تحيل إلى أفلام للجنة الدولية، يُمكن للقارئ تلقائيًا استيعاب معنى الروح الإنسانية وهدف القانون الدولي الإنساني، المتمثل في الحد من وسائل وأساليب الحرب وحماية الأشخاص غير المشاركين أو الذين كفوا عن المشاركة في القتال ■

زينب غصن

رسوم: حسن فؤاد**

منازل برائحة الذكريات

1976: لا أذكر ذلك المنزل الأول، أسمع عنه فقط. قيل لي إنني ولدت فيه وإنه كان يقع عند نهاية الشارع. قيل لي إنه بعد ساعة من ولادتي سقطت قذيفة بالقرب من منزلنا وإنني بكيت كما لم يبكِ طفل. كان أول لقاء لي مع الحرب. انتقلنا منه إلى منزل آخر في وسط الشارع نفسه. حسنًا فعلنا؟ لا أعرف، فالمنزل الأول تحول إلى كومة من الركام بفعل تفجير طال مكتبًا حزبيًّا في البناية نفسها، لكن المنزل الثاني لم يكن مصيره أفضل.

1982: الجيش على أبواب بيروت، وبيروت تحت الحصار. كانت أمِّي تجمع ملابسنا وبعض الأوراق المهمة في حقيبة تمهيدًا للخروج. الغارات تتوالى حولنا ورائحة الدخان طاغية. كنت أرى الطائرات تحلق، من الشرفة. لم أكن أعرف أن الخروج من بيتي هذه المرة إلى منطقة أكثر أمانًا سيجعلني أختبر الخسارة الأولى لبعض من طفولتي. وأن سبحة الخسائر ستستمر لسنوات طويلة مقبلة. هي الحرب إنما بالنسبة لطفلة لا يهم شيء سوى أن تستعيد أماكنها وأشياءها عندما تعود. لكن ذلك لن يحصل إلا جزئيًّا. فالسرير الإضافي الحديدي الكبير الذي كانت تنام عليه صديقة لوالدتي بمقام خالتي، سيتحول إلى كومة من الحديد المعجون. وخزانة ملابسي ذات اللون الأزرق السماوي، تلك التي كنت أخاف أن يخرج من داخلها وحش يخيفني، تحولت إلى نصف خزانة، ركنت في الشرفة كمخزن. أما منزل الدمية الذي حصلت عليه في عيد ميلادي، فلن يبقى منه سوى بعض أثاث منثور. وستبقى آثار تلك القذيفة الطائرة ماثلة في أركان الحمام، الذي شُوِّهت زواياه. بعد سنوات سأستعيد بعضًا من ذكريات بيتي ذلك، في إطار شباك حديدي وشرفة بيت آخر بعيد.

1986: جدتي لا تتوقف عن الحركة. أسمع تنقلها في أرجاء المنزل مع الفجر. تبدأ بكنس أوراق الشجر من أمام الباب ثم تنطلق إلى المطبخ لتنظيفه وإعداد طعام الإفطار بعد أن تكون قد أنهت تنظيف باقي غرف المنزل. إنها السابعة والنصف صباحًا وكل شيء أصبح جاهزًا. منزل برائحة الذكريات والعائلة المجتمعة والياسمينة التي تظلل بابه. أقفل المنزل، وهاجرت العائلة، أما رائحته فأشمها كل يوم في شتلة الياسمين

الصغيرة على شرفتي في مدينة بعيدة...

1989: حرب جديدة بدأت، ستقعدنا خارج بيتنا لسنوات... هذه المرة أيضًا ستطال القذيفة أماكني وأشيائي. سأخسر اللعبة الأخيرة التي أهداني إياها جدي، وخزانتي الصغيرة، وجهاز «الأتاري»، والإسورة الفضية ذات الأجراس. سأسكن في منزل قريب برائحة الكتب. هناك حيث المكتبة الصغيرة الغريبة المعلقة على الجدار الضيق. غرابتها كمنت في ما تحتويه. كتب صغيرة، مرصوصة، تستدعيك لأن تلتقطها، وكأنها تناديك باستمرار بلغة تسمعها بغير أذنين. شعور بالإدمان يغشاك كلما تناولت كتابًا ففتحته، ثم لم تتمكن من إغلاقه حتى تصل لجلدته الأخيرة. لكن الأغرب أن المكتبة لم تكن تنضب. وكلما انتهيت من كتاب استدعاك آخر ثم آخر. زمن قرأت فيه أكثر من أي وقت آخر في حياتي، السابقة واللاحقة. اليوم أعرف أن تلك السنوات وكتبها هي التي صقلتني لما أنا عليه اليوم، هي التي هدمت أفكارًا وأحلّت مكانها أخرى أكثر ثورية، أو هكذا بدت لي. لكنها بالتأكيد كسرت الكثير من المسلّمات التي كنت أحملها. واليوم ما زالت تلك الرائحة تجذبني في المنازل، وتراني مشدودة دومًا إلى تلك الزاوية، حيث الكتب تنتظر من يلتقطها.

2003: منزل بلا رائحة، بلا طعم ولا لون. هو سقف وأربعة جدران. مكان للمبيت فقط. ميزته الوحيدة أنه قريب من ذلك الذي كان بيتي ومن شارعي في ذلك الحي العائلي. ميزته قربه من القصص التي عشتها ومن الأهل والجيران. يضم في غرفه بعضًا من أشيائي لكن دائمًا ما يغلبني الشعور أنها في غير مكانها. قبيحة هي الأماكن المحايدة...

2017: بيتي الجديد. ما زلت أحاول اكتشاف روحه ونشر الروائح التي أحبها فيه: رائحة الأطفال وهم يلعبون، رائحة إعداد الطعام في المطبخ، رائحة الخشب المنتشر في زواياه، رائحة الحب والياسمين والكتب. أحاول أن أبعد القلق المتجذر فيّ. هنا ملجئي. أخشى فقدان أي من روائحه المحببة. ليس لديّ القدرة على تحمل الفقد مرة أخرى...

* فنان تشكيلي مصري راحل (1926–1985)

محمد إبراهيم أبو سنة*

بكائية لأبي فراس الحمداني

«حلب» على مرمى سحابة
نثرت ضفائرها
وفستق دمعها
يشكو الصبابة
مالت بنا شمس الغروب
إلى الكآبة
وأنا وأنت «أبا فراس»
ننتمي للريح...
.. لا شمس الملوك
تضيء ما يعتادنا
من ليلنا الوثني
لا قمر الكتابة
يهمي بسوسنه
فيلهبنا
وتطلع في فضاء القلب
أزهار الغرابة
لا تنكشف للغد
أنت محاصر
ما بين بحر الروم والمنفى..
... وتلك نبوءة العراف
تلمع في سيوف ذوي
القرابة
من أين يا زين الشباب
أتيت؟
من رحم القصائد
والمكائد والشدائد والرعود؟
من أين تطلع
أيها القمر الشامي
المكبل بالأقارب والمصائب والقيود؟
قلبي عليك ...
.. وأنت تعبر للحدود
جرحًا تطاول ألف عام
جرحًا من الخذلان
والدمع الكذوب
ومن أباطيل الكلام
جرحًا بحجم المجد ..
حجم الحب في
قلب الشام
ها أنت تبحر في مياه القلب
تبصر في مرايا الوقت
أوهام الغلام
يمضي على وقع السيوف
إلى حمى أم ..
.. تولول في الظلام
تبكي رحيل أحبة
بيد الأحبة
ما زلت ترجف
كلما هزتك أيام
الضرام
وأبوك مقتول
بسيف بني أبيه
وأنت ما بين السهام
تعطي لفوضى الأرض بعض نظامها
وتقيم حلمك في النظام
تبني مدينتك الجميلة
بين أضلاع القصائد
ما كنت تحلم بالعروش
أو الضياع أو الموائد
دع زمرة الشعراء
فوق أرائك الذل
«المنافق»
ينشدون ويأخذون
ويكذبون ويفخرون
وأنت شاهد
يتجمعون على الطعام
وأنت واحد
تمضي إلى الروم الذين
تربصوا
تمضي لما لا عيب
فيه ...
أبا فراس تبتغي
«مجد العرب» ..
ما من سبب ..
يدعوك أن تحني جبينك
والخطوب ثقيلة ...
وسواك يقترح الهرب
ووقفت للموت المؤكد
أنت ند كالحياة له
إذا لاح الخطر
شدوا وثاقك
مرحبًا بالأسر
أو بالموت ...
يركع تحت أخمصك الظفر
«حلب» على مرمى سحابة
وهواك متسع لهذي
الأرض
والأحلام غابة
ملأى بأسرار الغيوب
وليلنا متثاقل
وبنو العشيرة يسفكون
دماءهم
وعلى المدى أم مصابة
سرب من الغربان
ينعق فوق تاريخ مهان
أمم يسابقها الزمان
فلا تبالي تنطوي
خلف الزمان
تلهو إذا حمي الوطيس
وحينما اشتد الرهان
فتكت بأنفسها القبائل
وانتحت
تبكي حظوظ حروبها
في ظل أرداف القيان
سرب من الغربان
ينعق
فوق تاريخ
مهان
أمم تساق إلى مصائرها
يسابقها الزمان
فتنطوي
حتى لينكرها
الزمان

* شاعر مصري

دمشق:

دورات تدريبية في الإغاثة الصحية وجراحات الحرب

بعد مرور أكثر من خمس سنوات على اندلاع الأزمة السورية، تتزايد أعداد الجرحى، ما يؤدي لارتفاع العمليات الجراحية والرعاية الطبية التي تُقدم لمصابي الحرب. لذا نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في دمشق، خلال الأشهر الأخيرة الماضية، مجموعة من الدورات التدريبية وورش العمل المختلفة لدعم وتطوير قدرات نحو 140 من العاملين السوريين في المجال الصحي. فمثلًا، عُقدت حلقة دراسية حول جراحات الحرب، بهدف تعريف الجراحين السوريين على خبرة جراحي اللجنة الدولية في مجال التقنيات الجراحية وتقنيات التخدير، والتعامل مع الجروح، ورعاية المرضى في البيئات الخطرة. كما هدفت الحلقة الدراسية إلى تبادل الخبرات بين جراحي اللجنة الدولية والجراحين السوريين. وتُعد هذه الحلقة الدراسية الأولى من نوعها التي تنظمها اللجنة الدولية في سورية. كما نظمت اللجنة الدولية في آب/ أغسطس الماضي ورشة عمل حول تحديد هوية أصحاب الرفات البشرية بواسطة الطب الشرعي والتشريح. وحضر حلقة العمل الأكاديمية هذه 33 من ممارسي الطب الشرعي (أطباء معالجين وأطباء أسنان) من مختلف المحافظات السورية. ركزت الدورة التدريبية على الطرق العلمية لتحديد هوية أصحاب الرفات البشرية مع التركيز بشكل خاص على التشريح بوصفه إحدى أدوات تحديد الهوية. وشارك الأطباء الشرعيون بخبرتهم في التعامل مع الجثث التي يَصْعُب التعرف على هويات أصحابها في السياقات الصعبة. وفي ختام هذه الفعالية وقعت رئيسة بعثة اللجنة الدولية في **دمشق** **ماريان غاسر** مع رئيس **الهيئة العامة للطب الشرعي** في سورية الدكتور **حسين نوفل** مذكرة تعاون بين المنظمتين. ويمثل توقيع هذه المذكرة معلمًا مهمًّا على طريق وضع استراتيجية للطب الشرعي في سورية وتنفيذها.

ICRC

ICRC

... وتنظيم ورشة عمل حول انتشال الجثث

كما نظمت اللجنة الدولية أيضًا في أيلول/ سبتمبر الماضي ورشة عمل حول انتشال جثث الموتى ونقلهم في حالات الطوارئ. حضر الورشة 24 متطوعًا من **الهلال الأحمر العربي السوري** من **ريف دمشق** و**القنيطرة**. وهذه هي رابع حلقة عمل تُعقد في العام 2016، والثامنة منذ فُتِح ملف دعم وتطوير الطب الشرعي في سورية. استهدفت حلقة العمل التي يغلب عليها الطابع العملي العاملين في المجال الإنساني بوصفهم أول المستجيبين السوريين في الميدان في حالات النزاع المسلح، واشتملت على التعريف بإجراءات انتشال الجثث، ونقلها، وتسليمها بصورة كريمة، على النحو الذي يدعم عملية تحديد هوية أصحاب الجثث.

أربيل:

ورشة عمل لإدارة الجثث في أوقات النزاعات

نظمت بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في العراق ورشة عمل في **أربيل** لمناقشة السبل الصحية لإدارة الجثث في أوقات النزاعات المسلحة وغيرها من حالات العنف. حضر الورشة ممثلون عن **وزارة البيشمركة** ووزارة الصحة ووزارة الداخلية ومعهد الطب العدلي وكذلك الدفاع المدني. واتفق المشاركون في ورشة العمل على وضع آلية تنسيق مشتركة تستند على أفضل الممارسات الدولية والاحتياجات الإنسانية فيما يتعلق بإدارة الجثث.

تونس:

تدريب لعناصر الجيش في القانون الدولي الإنساني

ICRC

نظمت **المدرسة الحربية العليا** في تونس في شهر آذار/ مارس الماضي ندوة علمية عن القانون الدولي الإنساني بالتعاون مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر. حضر الدورة نحو مائة من كبار الضباط العسكريين وضباط الجمارك والحماية المدنية. شملت الندوة طرح موضوعات مثل التكييف القانوني للنزاع المسلح، وإدارة الأعمال العدائية. وركزت الندوة تركيزًا خاصًا على قضية الأشخاص المحميين في النزاع المسلح وتوفير الحماية للسكان المدنيين. وقد مثلت الندوة فرصة لمناقشة القضايا الراهنة بما في ذلك التحديات التي تواجه تطبيق القانون الدولي الإنساني في الحروب غير المتماثلة التي هزت المنطقة وأيضًا أمن وحماية العمل الإنساني في الميدان.

ICRC

... ودورة للأطباء الليبيين للتعامل مع حالات غرف الطوارئ

نظمت بعثة اللجنة الدولية في ليبيا دورةً تدريبيةً للعاملين في المجال الصحي في الفترة من 19 إلى 21 تشرين الأول/ أكتوبر حول كيفية التعامل مع حالات غرف الطوارئ. شارك في هذه الدورة، التي عُقدت في تونس، 20 طبيبَ طوارئ وجراحًا من مختلف مناطق ليبيا. وتلت هذه الدورة ندوة لمدة يومين حول جراحةً الحروب شارك فيها 36 إخصائيًّا ليبيًّا، معظمهم جراحون يعملون في 10 مستشفيات في ليبيا، وبالأخص في **طرابلس** و**مصراتة** و**بنغازي** و**سبها**. وتهدف هذه الدورات إلى دعم المستشفيات والمراكز الطبية في ليبيا وتطوير قدرات العاملين بها من أجل معالجة الجرحى المصابين بالأسلحة وحالات الصدمة الحادة. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر، نظمت اللجنة الدولية بالتعاون مع الهلال الأحمر الليبي دورةً في الإسعافات الأولية استهدفت 15 متطوعًا من متطوعي فرع الهلال الأحمر الليبي بمدينة **مصراتة**. استمرت الدورة، التي أشرف عليها نخبة من المدربين، ثلاثة أيام.

صنعاء:

اللجنة الدولية تنفذ أنشطة تخدم الآلاف

نفذت بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في اليمن العديد من الأنشطة الإنسانية في مجال الإغاثة والرعاية الصحية وكذلك في توفير المياه النقية منذ اندلاع القتال في اليمن في آذار/ مارس من العام الماضي. وقد استفاد من هذه الأنشطة آلاف اليمنيين الذين تأثروا بالقتال الدائر حاليًّا في البلاد. ومن تلك الأنشطة الإغاثية: مشروع الرغيف المجاني الذي نُفذ في مديريات **صالة** و**المظفر** و**القاهرة** في محافظة **تعز**، التي تُعد من المحافظات الأكثر تأثرًا بالقتال. وقد أُنجز هذا المشروع، الذي استمر ستة أشهر، بالشراكة مع 29 مخبزًا في المحافظة، واستفاد منه أكثر من 35 ألف شخص في تلك المديريات. كما استفاد أكثر من 200 ألف شخص خلال العام الجاري من المساعدات الغذائية والإغاثية التي وُزعت في **تعز** و**عدن** و**أب** و**حضرموت** و**عمران** و**صعدة** و**صنعاء**.

ICRC

ICRC

القدس:

اللجنة الدولية تنظم يومًا للجامعات

نظمت **اللجنة الدولية** في الأراضي الفلسطينية يومًا مفتوحًا في **جامعة القدس**، استهدف تعريف طلاب الجامعة بالدور الذي تضطلع به اللجنة الدولية في أوقات النزاع المسلح. شمل اليوم المفتوح فعاليات ومحاضرات تعريفية عن القانون الدولي الإنساني، وحماية المدنيين في أوقات النزاعات، وتوفير الرعاية الصحية في زمن الحروب، وكذلك زيارات مندوبي اللجنة الدولية للسجون وأماكن الاعتقال. وشارك في اليوم المفتوح **جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني**، التي قدمت نبذةً تعريفيةً عن أنشطة الجمعية وخدماتها التي تقدمها في المجتمع الفلسطيني.

ICRC

. . . وأنشطة للأطفال عن دور اللجنة الدولية

نظمت مكاتب اللجنة الدولية للصليب الأحمر في كل من **الخليل وبيت لحم ونابلس وغزة** طوال صيف العام 2016 مجموعة من الأنشطة التفاعلية والترفيهية استهدفت ما يزيد على 200 من الأطفال الصغار والمُيسرين الشباب. وهدفت هذه الأنشطة إلى تعريف الأطفال بالدور الذي تضطلع به اللجنة الدولية من خلال أنشطة تعليمية غير تقليدية كاللعب والرقص والمسرح والمرح مع المهرجين والألعاب التعليمية وجلسات الدعم النفسي – الاجتماعي. وجرى شرح الجوانب المختلفة لعمل اللجنة الدولية ودورها في حماية المدنيين، والقانون الدولي الإنساني، واحترام المهام الطبية، ومخاطر مخلفات الحرب غير المتفجرة، وأهمية إدماج الأشخاص ذوي الإعاقة في المجتمع. كما جرى استعراض الأدوار التي تضطلع بها اللجنة الدولية و**جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني** في أوقات الطوارئ. وشكلت هذه الأنشطة فرصة للجنة الدولية للتعرف على احتياجات هؤلاء الشباب والأطفال ومخاوفهم بشكل أعمق. وفي ختام كل نشاط، أُتيحت للجنة الدولية فرصة مشاركة جمهورها يومًا ترفيهيًّا (كما حدث في **الخليل**)، كما أتيح للجمهور فرصة مشاهدة عمل اللجنة الدولية على أرض الواقع من خلال رحلة ميدانية (كما حدث في **نابلس**)، ومشاركة اللجنة الدولية في احتفالية كبيرة مع عائلات الأطفال (كما حدث في غزة). واتفق الجميع على مواصلة العمل لتحقيق التعاون في المستقبل يحدوهم في ذلك الأمل والاحترام.

بعثات اللجنة الدولية للصليب الأحمر في المنطقة

ICRC

الأراضي الفلسطينية المحتلة: شارع النبي شعيب رقم (14) منطقة الشيخ جراح، القدس 91202، صندوق بريد 20253
هاتف: 5917900 2 (972+) فاكس: 5917920 2 (972+)
البريد الإلكتروني: jer_jerusalem@icrc.org

الجزائر: 43 شارع المعز ابن باديس بوارسون سابقًا - الأبيار – الجزائر
صندوق بريد : 16606 الجزائر
هاتف : 03 43 92 21 / 73 40 92 21 (213+) فاكس: 18 43 92 21 (213+)
البريد الإلكتروني: alg_alger@icrc.org

الخرطوم: العمارات شارع رقم 33 – منزل رقم 16 – الامتداد الجديد
صندوق بريد 1831 – 11111 الخرطوم
هاتف: 65/476464 183 (249+) (خمس خطوط) فاكس: 183 467709 (249+)
البريد الإلكتروني: kha_khartoum@icrc.org
هاتف: 3310476/3339034 11 (963+) فاكس: 3310441 11 (963+)
البريد الإلكتروني: dam_damas@icrc.org

الصومال: Denis Pritt Road، صندوق بريد: 73226 – 00200 نيروبي، كينيا
هاتف: 301 2719 (25420+) فاكس: 13731 27 (25420+)
البريد الإلكتروني: somalia@icrc.org

الرباط: 35 زنقة القلصدي (خلف مصحة ابن خلدون) ، أكدال 10090، الرباط
هاتف : 537750551 (212+) فاكس : 537651018 (212+)
البريد الإلكتروني: rab_rabat@cicr.org

القاهرة: 33 شارع 106 حدائق المعادي، 11431 القاهرة، ج م ع
هاتف: 25281540/25281541 2 (02+) فاكس: 25281566 2 (02+)
البريد الإلكتروني: cai_lecaire@icrc.org

الكويت: البعثة الإقليمية لدول مجلس التعاون الخليجي (تغطي أنشطتها: الكويت، السعودية، الإمارات العربية المتحدة، قطر، البحرين، سلطنة عمان) الجابرية، قطعة 8، شارع رقم 17، منزل رقم 4 صندوق بريد: 28078 – الصفاة 13141
هاتف: 53220612 / 53220622 / 53220982 (965+) فاكس: 25324598 (965+)
البريد الإلكتروني: kow_koweitcity@icrc.org

بغداد: الصالحية، حي السكك، محلة 220، زقاق40 دار 6 ص.ب 3317 العلوية بغداد– العراق
هاتف: 7/ 8126 443 770(0) (964+) 5/ 964614 7801(0) (964+)
البريد الإلكتروني: bagdad@icrc.org

بيروت: بناية منصور، شارع السادات، الحمرا، صندوق بريد 7188–11
هاتف: 739297/739298/1 739299 (961+) فاكس: 740087 1 (961+)
البريد الإلكتروني: bey_beyrouth@icrc.org

تونس: بعثة إقليمية، (تغطي أنشطتها: تونس – موريتانيا – الصحراء الغربية) المندوبية الإقليمية بتونس نهج بحيرة كنستنس، رواق البحيرة عمارة أ، ضفاف البحيرة تونس 1053
هاتف: 960179/960154/960196 71 (216+) فاكس: 960156 71 (216+)
البريد الإلكتروني: tun_tunis@icrc.org

جوبا: شارع الوزارات العمارات، جوبا، جمهورية جنوب السودان
هاتف: 889 151 977 0 / 170 275 912 0 (211+)
البريد الإلكتروني: jub_juba@icrc.org

دمشق: أبو رمانة، ساحة الروضة، شارع مصر، صندوق بريد 3579
هاتف: 3310476/3339034 11 (963+) فاكس: 3310441 11 (963+)
البريد الإلكتروني: dam_damas@icrc.org

طرابلس: النوفلين - شارع ابراهيم الهوني 10,53,050 بالقرب مصحة الأخوة طرابلس - ليبيا
هاتف: 9332 340 21/ 9331 340 21 (2180+)
البريد الإلكتروني: tri_tripoli@icrc.org

طهران: طهران، إلهيه، شارع شهيد شريفي منش، زنقة آذر رقم 4، قرب مستشفى أختر.
الرمز البريدي: 1964715353
هاتف: 4–2122645821 (98+) فاكس: 2122600534 (98+)
البريد الإلكتروني: Teh_teheran@icrc.org

صنعاء: شارع بغداد، رقم 19، منزل رقم 20 صندوق بريد: 2267 صنعاء
هاتف: 4/ 467873 / 44 38 21 1 (967+) فاكس: 75 78 46 1 (967+)
البريد الإلكتروني: san_sanaa@icrc.org

عمّان: دير غبار، حي الديار، شارع يوسف أبو شحوت صندوق بريد 9058 عمان 11191
هاتف: 5921472/4604300 6 (962+) فاكس: 5921460 6 (962+)
البريد الإلكتروني: amm_amman@icrc.org

نواكشوط: الحي A، المنزل رقم ZRA 722، صندوق البريد 5110، نواكشوط، الجمهورية الإسلامية الموريتانية
هاتف: 45245810/45244738 (222+) فاكس: 45244697 (222+)
البريد الإلكتروني: nou_nouakchott@cicr.org

النازحون داخل بلدانهم

يتزايد القلق على مستوى العالم بشأن نزوح الأشخاص داخل بلدانهم بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعية، ويزيد هذا القلق على نحو خاص لدى العاملين في المجال الإنساني. وهو قلق له ما يبرره تمامًا، لأنه في جميع الأحوال يعاني النازحون داخل بلدانهم من صعوبات بالغة تعرِّض بقاءهم على قيد الحياة للخطر. يحلل هذا الكتيب الأبعاد المقلقة لظاهرة النزوح الداخلي، فيقدم تعريفًا للنازحين داخل بلدانهم، وكيف يحميهم القانون الدولي الإنساني، وطبيعة احتياجاتهم والأخطار التي تهدد أمنهم، وأخيرًا دور الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر في حماية ودعم النازحين داخليًّا. يمكنكم الحصول على هذه المطبوعة من خلال الرابط:
https://www.icrc.org/ar/publication/internally-displaced

ضمان أمن مرافق الرعاية الصحية أثناء النزاعات المسلحة

تقدم هذه المطبوعة دليلًا عمليًا للحكومات، ومديري المستشفيات، وغيرهم من الأطراف المعنية، لمساعدتهم في الاستعداد والتعامل مع المواقف التي تشكل خطرًا يهدد الهدف الذي يسعون إليه، ألا وهو مساعدة الجرحى والمرضى، والحفاظ على صحة الأشخاص المتضررين من النزاعات المسلحة وحالات الطوارئ الأخرى. واستندت هذه المطبوعة إلى التوصيات الصادرة عن حلقتي عمل الخبراء حول ضمان أمن وسلامة مرافق الرعاية الصحية، اللتين عقدتا في **أوتاوا** بكندا العام 2013، وفي **بريتوريا** بجنوب أفريقيا العام 2014. كما أثرتها الإسهامات التي قدمتها جمعيتا **الهلال الأحمر المصري** و**الصليب الأحمر الكندية**، وكذلك **مبادرة هارفارد الإنسانية**، و**الاتحاد الدولي لهندسة المستشفيات**، و**منظمة أطباء بلا حدود**، و**منظمة الصحة العالمية**. المطبوعة متوفرة على هذا الرابط:
https://www.icrc.org/eng/resources/documents/publication/p.4239htm

شارات الصليب الأحمر والهلال الأحمر

أُعدَّت هذه النشرة لمساعدة الأعضاء في الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر في مواجهة مشكلة إساءة استخدام الشارات. توضح النشرة الغرض من الشارات، ولماذا تولي أهمية خاصة لحمايتها وضمان احترامها. وتوضح كذلك من الأشخاص والجهات المصرح لهم بعرض الشارات. تولي هذه النشرة اهتمامًا خاصًّا بالطواقم الطبية وطواقم الرعاية الصحية والصيدليات. ويمكن للجمعيات الوطنية للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر إضافة صفحة واحدة تحتوي على معلومات عن الشارات المستخدمة في البلد الذي تعمل به كل جمعية. المطبوعة متوفرة هنا:
https://www.icrc.org/ar/publication-4247/red-cross-and-red-crescent-emblems

فيديو عن التكلفة البشرية لتجاهل اتفاقيات جنيف

أنتجت اللجنة الدولية شريط فيديو بنسق إعلاني يبيِّن التكلفة البشرية المروعة الناجمة عن تجاهل **اتفاقيات جنيف**، ويهدف إلى رفع الوعي بالقانون الدولي الإنساني. يأخذ هذا الفيديو، الذي يستغرق 60 ثانية وعنوانه «**الانتصار بأي وسيلة**»، المشاهدين في رحلة تبدأ بالحلم بمدينة فاضلة وتنتهي بكابوس إنساني. يبدأ الفيديو، الذي استُخدمت فيه لقطات حقيقية من النزاعات الجارية حول العالم، بتعليق صوتي يحمل نبرة تفاؤل على خلفية موسيقى حالمة، عارضًا صورة لمدينة فاضلة تظهر فيها مشاهد لأمة تنعم بالأمن والرخاء. وبمرور الوقت، تتغير نبرة التعليق لتصبح شيئًا فشيئًا لهجة تهديد ويخيم جو من الكآبة. وما يلبث أن يرى المشاهدون لقطات يُنتهك فيها القانون الدولي الإنساني، حيث تقصف المدارس والمستشفيات. وينتهي الفيديو بمشاهد دمار وخراب، وتلك هي النتيجة الطبيعية لاتباع نهج «**الانتصار بأي وسيلة**» أثناء الحروب. ويمكن مشاهدة الفيديو على هذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=veCD5a1Z2tA&feature=youtube

حماية الأشخاص المُقَيدة حريتهم

يشرح هذا الكتيب المُصوَّر لماذا، ومتى، وكيف تقدم اللجنة الدولية للصليب الأحمر المساعدة والحماية للأشخاص المقيدة حريتهم. ويقدم الكتيب في نسخته المنقحة هذه نبذة عن الأنشطة المتعددة التي تضطلع بها اللجنة الدولية، والبرامج التي تنفذها للمساعدة في تحسين معاملة المحتجزين وظروفهم المعيشية. كما يستعرض الدعم الذي تقدمه اللجنة الدولية إلى الأشخاص المحتجزين وإلى المسؤولين عن رعايتهم على حد سواء، سعيًا نحو تحقيق الهدف النهائي وهو صيانة الحياة والكرامة. ويمكن الحصول على الكتيب من خلال هذا الرابط:
https://www.icrc.org/ar/publication/0685-deprived-freedom

haunts millions of marginalized and vulnerable people. Over time, the cities of the Arab world have suffered from overpopulation, the deterioration of environmental conditions, inadequate or damaged housing, a declining infrastructure, poor public services, social malaise, violence and the consequences of inadequate urban planning.

In 2011, when unrest erupted in the Arab world, the urban areas of Syria, Yemen and Libya became the main battlefields in the conflicts. The humanitarian ramifications of these conflicts were disastrous, unprecedented in modern Arab history. Conflict has led to a terrible toll of civilians killed in fighting within densely populated urban areas, as fighting parties have mingled with and hidden among civilian populations, shunning confrontations in more open areas. At the same time, weapon systems have been used inside cities that were originally designed for use in open battlefields. In the cities of Syria, Yemen and Iraq, as well as in Gaza, the ICRC has witnessed the terrible humanitarian impact of explosive weapons in urban districts. These weapons subject civilian populations to the danger of being killed, severely wounded or disabled for life. In addition, they have a devastating impact on infrastructure and essential services. Millions of people have had to flee their homes for years, with no likely end to the conflict on the horizon. Due to the exceptional impact of war fought within urban areas, Al Insani has decided to devote a special issue to urban war, to explore the different dimensions of the humanitarian tragedy of these conflicts. In this issue, we examine images of urban war and visit cities to witness the devastation that has befallen them. In Aleppo, Damascus and Homs we approach residents to find out how they are resisting war and creating ways to survive it, and we journey to Yemen to observe the devastating effects of war on its historic cities. The issue also presents different accounts from cities that have suffered from war, such as a lament for a changing Khartoum, Beirut in wartime as narrated by Lebanese writers, and the songs associated with war and resistance that come from the cities of the Suez Canal.

«Al-Insani»

Contents

• **Shocking yet revealing views uncovered by ICRC survey** Report By **Ahmed Zaki Osman**, Managing Editor, Al-Insani
A global survey conducted by the ICRC on people's respect for the laws of war, at the core of which lies protecting civilians, shows that an increasing number of people are resigned to the targeting of civilians as an inevitable cost of warfare, with some even accepting the torture of captured enemy combatants. However, the results were not all so shocking, with a vast majority of the people surveyed believing that the laws of war matter and must be duly respected.

• **File**: **Arab cities ravaged by violence** By **Ahmed Zaki Osman**, Managing Editor, Al-Insani
Arab cities have long suffered due to low levels of development, high rates of poverty and an absence of economic and social justice. The 'Arab Spring' revolutions that erupted in the region, marked an uprising of desperate city dwellers who have, for decades, been marginalized and subject to forms of violence. This article sheds light on the economic and social background of the urban violence we see today.

• **There is no one to weep over Yemen** By **Nashwan Mohammed al-Samiri**, Yemeni writer
In Yemen, war has no laws. Scores of civilians can, overnight, find themselves buried under the debris of once-vibrant neighbourhoods. As the fighting continues, war is taking a heavy toll on civilians and the infrastructure of most Yemeni cities is being destroyed.

• **This is Aleppo or the 'Culture of Life'** By **Sanaa Aly**, Syrian journalist
The war in Aleppo has claimed the lives of so many that death has become a tragic way of life that the city's residents have seemingly learned to cope with. Without warning, showers of missiles and shells pour down upon the city; then, when the guns have gone quiet, the streets are once again busy with people going about their daily business, as if nothing had happened.

• **Hoping of deliverance in besieged al-Waer** By **Sanaa Aly**, Syrian journalist
Due to the protracted armed conflict, over half a million people are besieged within Syria. Among these are residents of the al-Waer neighbourhood in Homs. This article provides a glimpse at the way people in the neighborhood are living as they face acute shortages of food supplies.

• **A diary of shell-devastated Syrian cities** By **Maher al-Mo'nes**, Syrian journalist
Mortar shells have become a feature of life in the Syrian capital Damascus, becoming part of the daily routine of its inhabitants. Wherever you go in the city, you can hear bomb blasts rocking entire neighborhoods. The use of explosive weapons with a wide area effect in populated areas is a tragic story that is retold in rural Damascus, Aleppo, Homs and many other Syrian cities.

• **Khartoum, the riverside capital lamenting its fate** By **Faisal Mohamed Saleh**, Sudanese journalist and writer
Located at one of the bends of the Nile, at the confluence of the White and Blue Niles, Khartoum is a unique African urban space. Having been transformed into a modern city with new roads and buildings, the capital's historic urban character is deteriorating due to a number of factors, including protracted armed conflict.

• **The lives of cities as reflected in the photographs of their destruction** By **Sahar Mandour**, Lebanese journalist
Many archival newspaper and television images capture life behind the barricades of the Lebanese Civil War (1975–1990). Yet these photos are seldom called on to tell the everyday story of war. Only those images that reflect the actions or presence of leaders during wartime are highlighted, to serve a particular present day purpose, whether to praise one leader or criticize another.

• **The desolation of a place as told by Lebanese fiction** By **Youssef Bazzi**, Lebanese journalist and writer
War has never been absent from the lives of generations of Lebanese, even with the end of the Civil War. This explains its constant and predominant presence in Lebanese literature up to today. Those Arab readers who sometimes criticize the overwhelming absorption in the atmosphere of war and its repeated retelling by Lebanese novelists are unaware that the war in Lebanon has not come to an end. It persists in Lebanese politics, on the streets and even within people's minds.

• **How the film lens has captured the ruination of cities** By **Magda Morris**, Egyptian film critic
World and Arab cinema is rich in films that speak of war and its effects when urban areas become battlegrounds. Countless films have recorded the damage inflicted on cities and their populations due to armed conflict; from the wars in the former Yugoslavia, through the Lebanese Civil War, right up to the current urban battlegrounds of the Middle East.

• **Resisting war with songs in Egypt's Suez Canal cities** By **Fayrouz Karawya**, Egyptian singer and songwriter
A city living in a state of war cannot withstand such difficult times without the support of art. This article explores the role of music, singing and group dancing in periods of popular revolution and war through the experience of the cities of the Suez Canal.

• **The human cost of the wars in the Middle East** By **Omar Mekki**, Regional Legal Advisor, ICRC Cairo
In today's ongoing conflicts in the Middle East, many of the warring parties disregard international humanitarian law (IHL). Sometimes the rules of IHL are applied in an opportunistic way, while often there is no clear distinction between combatants and civilians. Moreover, some view IHL as a tool of imperialism imposed by the West to exercise control over Muslim countries.

• **The use of chemical weapons is the biggest challenge we are confronted with in the Middle East: Interview with Dr Marco Baldan, ICRC's Chief War Surgeon** By **Ahmed Zaki Osman**, Managing Editor, Al-Insani
Al-Insani interviews Dr Marco Baldan, an eminent war surgeon with long-standing experience in treating war-wounded patients. We discuss with Dr Baldan the nature of the challenges faced when assisting the wounded and providing health care to civilians in those areas of the Middle East witnessing fierce conflict, where weapons that cause severe damage to civilians are used, such as chemical and other weapons.

• **Somalia: Fresh scents at the market amidst financial difficulties** By **Rita Nyaga**, Communication Assistant, ICRC Somalia
Somalia is plagued by the adverse effects of climate fluctuation on the river Shabelle, which flows through many areas in the central and southern regions of the country. There are times when the river runs dry amid intense drought, before flooding back into life causing tremendous damage. In the face of these harsh conditions, the women of the town of Beletweyne are finding ways to survive and move on.

• **Millions around Lake Chad suffer a severe humanitarian crisis**
The Lake Chad basin area is witnessing a massive humanitarian crisis, considered to be one of the worst in the world today. More than two and a half million people have fled their homes due to the bloody conflict in the region. According to the ICRC, over 9 million people are in dire need of assistance.

• **A day in the life of the ICRC** By **Adnan Hizam**, Communication and Publication Officer, ICRC Yemen
Ali al-Halili from Yemen speaks about his work. "A day in the life of the ICRC" is a series of interviews conducted with ICRC staff from delegations around the world. Through these interviews we get a closer look at the conditions of humanitarian work in different areas worldwide, as well as the challenges faced by ICRC staff.

• **Book review: International Humanitarian Law: A Comprehensive Introduction by Nils Melzer**
The ICRC has issued a reference handbook on international humanitarian law (IHL). It represents a paradigm shift in publications tackling the laws of war, their application and the challenges facing them. The book, in 360 pages, covers the various aspects of IHL in an accessible, attractive and practical style, and is written in a concise and clear language and in line with the ICRC's reading of the law.

• **Without retouches: Houses redolent of living memories** By **Zeinab Ghosn**

• **Poetry: Jeremiad poem with Abu Firas al-Hamdani** Poem By **Mohammad Ibrahim Abu Senna**

Editorial

Metropolises ravaged Ancient Arab cities in wartime

Undoubtedly, there were signs. Maybe most people were taken unaware. But the spectre was definitely there. Suddenly, war took many peaceful Arab cities by storm, leading to the slaughter of hundreds of thousands, the displacement of millions, the break-up of many families, and the destruction of countless houses. So many dreams forever shattered.

Many Arab cities were plunged into the abyss of bloody armed conflict and had their faces appallingly changed: public squares becoming army barracks, gardens and parks turned into wasteland, cinemas and theatres reduced to rubble. The streets of Aleppo and Homs, once crowded with pedestrians, are now completely deserted, people have abandoned the old houses in the ancient neighborhoods of Tripoli, Taiz and Sirte, while historical sites and landmarks in Sanaa and Mosel have been destroyed. Six years have gone by and the war machine is still ravaging those Arab cities that were once the epitome of beauty and liveliness, praised by poets and vividly depicted by some of the best Arab novelists.

Even before the advent of what has come to be known as the Arab Spring, with all the forms of urban violence and bitter armed conflict that accompanied it, Arab cities were unprepared for the magnitude of the challenges posed by the accelerating process of urbanization. Successive waves of immigration from the countryside to urban areas had turned half the population of the Arab world, most of whom were originally villagers or nomads, into urban dwellers. In some countries, such as Libya, the urban population was close to 80% of the total population, while in Syria it was almost 60% before civil war broke out. The poor sought opportunities in urban areas. For many of them, moving to the city opened up the possibility of upward social mobility, getting a decent job and obtaining a better life in general. However, for many others, immigration to the cities meant experiencing the severity of urban life and facing the spectre of poverty that

قصة مصور تحاكي ما كان يوثقه من مآس

من أنغولا إلى غزة، ومن العراق إلى كمبوديا، شهد المصور جيل ديولي كيف تدمر الحرب الأجساد والعقول والحياة. في 2011، بينما كان يعمل في أفغانستان، قُدِّر لقصته الشخصية أن تحاكي القصص التي وثقها. ففي قندهار، وطأت قدمه لغمًا أرضيًّا. بالكاد نجا من الموت، لكن تعرض لبتر ثلاثي.

«تبدلت حياتي على نحو فاق ما يمكن استيعابه، إذ أخبروني أنني لن أتمكن من المشي مرة أخرى. غير أن المعجزة تحققت. تماثلت للشفاء، وعدت إلى العمل في أفغانستان. هناك وفي مركز الأطراف الاصطناعية، التقيت عتيق الله (سبع سنوات)، الذي كان يجري تركيب ساق اصطناعية له. فقبل بضعة أشهر، وطأ لغمًا أرضيًا أفقده إحدى ذراعيه وإحدى ساقيه.

لماذا لا أزال أمارس عملي؟

الإجابة بسيطة: بسبب أطفال مثل عتيق الله. فبينما كنت ألتقط صورة له، تأملت في الألم الذي أعانيه في كل يوم، سواءً الجسدي منه أم النفسي، وتساءلت في نفسي لماذا يجب على صبي صغير مثله أن يتعرض لما أقاسيه، لا لشيء سوى أنه كان ذاهبًا إلى المدرسة.